الفصل الثاني

وسائل الدعوة إلى اللّه

- أولا: أخلاق الداعية وصفاته.
- ثانيا: الكون بآياته داع إلى الله وهاد إليه.
- ثالثا: سُنن الله في خلقه.

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً: أخلاق الداعية وصفاته

تمهيـــد..

الدعوات كما تتوقَّفُ على صِدْقِهَا في ذاتِها، وتلبيتِها لحاجةِ الناسِ إليها، وموافقتِها لفِطْرتِهم.. فإنها تتوقَّفُ - كذلك - على الإنسانِ المُمَثِّلِ لها، والذي يكون - في سُلُوكه - صورةً مُعبِّرةً عنها ((ومُعَلِّمُ نَفْسَه ومؤدبُها أحقُّ بالإجلالِ والتفضيلِ من مُعَلِّمِ الناسِ ومؤدِّبِهم)).

ولا شيءَ يصرفُ الناسَ عن الاستجابة لما يُدعَون إليه كالتَّبايُن بين قَوْل الداعية وفعلِه.

إن هذا التَّبايُنَ يَصُدُّ الناسَ، ويجلبُ مَقْتَ الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [1]

وعندما تقومُ دعوةٌ يسألُ الناسُ - ابتداءً - عن أخلاق الداعية، ويتطلَّعون إلى معرفة شأنه؛ لأن الناس بفطرتهم لا يَفصلون بين سلوك الداعية وبين دعوته، وهم بها وبه يُخاطَبون ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [2]

وتشتدُّ حاجةُ الناس إلى معرفة الداعية وصفاته بقَدْر ما تكون عليه دعوتُه من تأثيرٍ في شئون الناس وتحويلٍ لواقعهم.

ومن هنا كانت عنايةُ الناس بمعرفة أحوال الرسول ﷺ وصفاته، على صورة لم تُعْهَدْ من قبل ولا من بعد؛ لأن دعوتَه ذاتُ تأثيرٍ في واقعٍ ومصير.

---

(١) الصف :٢، ٣.

(٢) هود : ٨٨.

روي البخاري عن عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أن أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُـــلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

يقول أبو سفيان: فَوَاللَّه، لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:

كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ - قَطُّ - قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ: لا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، لا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا.

قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلا تُشْرِكُوا به شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ.. وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.. وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا..

وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ..

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، ولَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ [1] لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ » [2]

أرأيت كيف عرف "هرقل" دعوةَ الحق من سيرة الرسول ﷺ وصفاته، وقد اتَّخَذَ من هذه السيرة، ومن خصائص الدَّعْوَة - حين عرفها - دليلاً على الظهور والامتداد « **فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ** »

* * *

إن ما فعله "هرقل" هو داعي الفطرة عند الناس جميعاً، ولا يمنعهم صدقُ إيمانهم ويقينهم من معرفة الأحوال والصفات، بل يزيد الإيمان من تطلعهم؛ طلباً للقدوة، وتحقيقاً للأسوة.

عن الحسين بن عليٍّ - رضي الله عنهما - قال: « سألت أبي قُلْتُ: كَيْفَ كَانَتْ سِيرَتُهُ ﷺ فِي جُلَسَائِهِ؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخَلْقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ، وَلا صَخَّابٍ، وَلا فَحَّاشٍ، وَلا عَيَّابٍ، وَلا مَدَّاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لا

(١) أي تكلفت.

(٢) رواه البخاري.

يَشْتَهِي، وَلا يُوئَسُ مِنْهُ، وَلا يَخِيبُ فِيهِ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلاثٍ: الْمِرَاءِ، وَالإِكْثَارِ، وَمِمَّا لا يَعْنِيهِ. وَتَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلاثٍ: كَانَ لا يَذُمُّ أَحَدًا، وَلا يُعَيِّرُهُ، وَلا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلا يَتَكَلَّمُ إِلا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ، مَنْ تَكَلَّمَ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِيَّتِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ مِنْ مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ، وَيَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَأَرْشِدُوهُ، وَلا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلا مِنْ مُكَافِئٍ، وَلا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يُجَوِّزَهُ، فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ » (١)

وأنت واجدٌ من ذلك ما تَقَرُّ به عينُك، فما من شيءٍ - من أَمْر رسول الله ﷺ في خَلْق أو خُلُق - إلاّ وامتدَّ إليه الوصفُ بعناية فائقة؛ لشدة التعلق به، وخالصِ الحُبِّ له، حتى غدت حياتُه ﷺ كُلُّها معلومةً للناس لا يخفى منها شيء، أي شيء.

في البيت زوجاتٌ يُحَدِّثْنَ عن كُلِّ ما يقعُ منه، في أخص شئونه من: غُسله، ووضوئه، ونومه، ومعاشرته لأزواجه، ومأكله، ومشربه، وما يدور في بيته من شئون، وما يُعَدُّ من طعام، وما يُوقَدُ من سراج.. ما يلبسه، وما يتطيَّبُ به، وهيئة فراشه، ومداعبته لأزواجه، وملاطفته لأهل بيته.. ذكْره لربِّه، وقوفه في الصلاة بين يديه.. ما يتلوه من قرآن، وما يواظبُ عليه من سُنن، وما يحرصُ عليه من نوافل.

وفي خارج البيت، حيث الأعين ترصده، والقلوبُ تتطلَّع إليه، والنفوس - دائماً - مشُوقة لرؤيته، لا يكاد البابُ يُفتَح، ولا يكاد رسولُ الله ﷺ يخرج إلى الناس - في أيِّ شأن - حتى نرى مَن يُسجِّل كُلَّ شيء عنه، حتى حركات يده، وقسمات وجهه، وهيئة مجلسه وتبسمه !!

(١) الشمائل المحمدية للترمذي.

يُسجِّلُون ما ينطقُ به، وما يصدرُ عنه من: رضا أو غضب، أو قيامٍ أو قعودٍ، أو أمْرٍ أو نهي.. والصحابة - جميعاً - حريصون على أن يروه، ويسمعوا منه بقدر حفاوتهم به، وحرصهم على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه.

إن صحابةَ رسول الله ﷺ لم يتركوا شأناً من شئونه إلاَّ وتحدثوا عنه، ولم يُعرَفْ - في تاريخ البشر قاطبةً - نبيٌّ من الأنبياء اشتُهرت سيرتُه، وعُرِفَ كُلُّ شيءٍ عنه، مثل ما تَمَّ لخاتم الرُّسُل ﷺ؛ لتكون سيرتُه نبراساً للخَلْقِ جميعاً في كُلِّ زمانٍ ومكان.

والناس - وهم يتعلَّقون بالمزيد من أخلاقِ الرسول ﷺ - يجدون مَن يدُلهم على الأصل الجامع لبيان أخلاقه ﷺ وهو "القرآن الكريم"

سُئِلَت السيدةُ عائشةُ - رضي الله عنها - عن خُلقِ رسول الله ﷺ، فقالت: « **كان خُلُقُه القرآن** »[1]

وامتدَّ الأمرُ من بعد رسول الله ﷺ إلى صحابته، فاعتنى الناس بسيرتهم؛ لأنهم موطن الأسوة والقدوة من بعده، كما يمتدُّ إلى كُلِّ داعٍ إلى أمرٍ ذي بالٍ يتَّصل بحياة الناس وأحوالهم.

ويذهب الناس، ويبقى من بعدهم ذِكْرٌ يتفاوت بتفاوت أعمالهم.

والدعاةُ الصادقون المخلصون لا يقفُ تأثيرهم في عصرهم وزمنهم، بل يمتدُّ من بعدهم، فإذا ذُكروا كان للناس في ذِكرهم عِبرٌ وعظات.

وكم ناس تأثروا بأناس لم يروْهم، ورأوا في سيرتهم مُثُلاً صالحة لهم.

ولا يُوارَى من حياة الصالحين إلاَّ أجسادهم، أما أعمالهم الصالحة وكلماتُهم

(١) دلائل النبوة للبيهقي.

الطيبة فتصعد وتُرفَع وتُذكَر من بعدهم.

لذا كان من أهم وسائل الدَّعْوَة إعداد الدعاة على صورةٍ تتناسب مع فطرة الدَّعْوَةِ نفسها، بأن يكونوا مُثُلاً حيَّةً معبِّرةً عنها، سواء في سُمُو منطقهم، أو طُهرِ سلوكهم وحكمتهم، أو سَمتهم وبُعدهم عما يُنفِّرُ الناسَ منهم.

ونستطيع - بعون الله - أن نُجمِلَ صفاتِ الدَّاعيةِ في أمورٍ تُنبئُ عمَّا وراءها.

* * *

obeikandl.com

١ـ إيمانه بما يدعو إليه

ومن أُولَى الصفات التي ينبغي على الداعية أن يتحلَّى بها: إيمانُه بما يدعو إليه.

وكذلك كان الرُّسُلُ - صلوات الله وسلامه عليهم - آمنوا، ثم دعوا الناس إلى ما آمنوا به، وأيقنوا فكان يقينُهم هُدىً لغيرهم.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)

وبغير هذا اليقين لا يستطيعُ الداعيةُ أن يُواجِهَ فتنةَ الحياة، ويُجابِه أعاصيرَ الإغراء والبلاء، فكم من ناسٍ لم يثبُتوا مع فتنة النعمة، وآثروها حين أقبلتْ.

وأهل اليقين - حيث كانوا - يُبتلون بمن لا يوقنون ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤)

وما أكثر هؤلاء، وما أخبث ما يعمدون إليه من وسائل الكيد والترويض للموقنين.

---

(١) البقرة : من الآية ٢٨٥.

(٢) الأنعام : ٧٥.

(٣) السجدة : ٢٤.

(٤) الروم : ٦٠.

والداعية إلى الله واقع - لا محالة - بين الإغراء والبلاء، فلن يثبت لأيِّ حال بغير إيمان ويقين.

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾[1]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١ ﴾[2]

* * *

(١) العنكبوت : ١- ٣.

(٢) محمد : ٣١.

obeikandl.com

٢- ثباتُه على الحقِّ واستمساكه به

ولا يمكن أن تقوم الدعوةُ، أو تتحقَّق بغير هذا الأصل؛ إذ لا ثبات بغير إيمان، ولا استمساك بغير يقين.. وكلاهما من الله تعالى وحده.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ ﴾ (١)

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ (٢)

إنه زادُ معرفةٍ ويقين، يُلقيه الله تعالى في قلبِ مَن تجرَّد له، وابتغى مرضاته.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤)

والمعرفة لا تُستمدُّ إلاَّ من كتاب الله ﷻ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ (٥)

---

(١) الإسراء : ٧٤.

(٢) هود : من الآية ١٢٠.

(٣) إبراهيم : ٢٧.

(٤) الفرقان : ٣٢.

(٥) الأنعام : من الآية ٩٠.

وبغير الصِّدق مع الله لا يُرجَى للنفس ثباتٌ ولا استقرارٌ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ (١)

وعندما يقومُ الثبات على أعمدةٍ راسخةٍ من المعرفةِ واليقين، والصِّدْقِ والتجرُّد، لا بُدَّ أن تتداعى أمامه وسائلُ المكر والخداع، وأن يتلاشى زَبَدُ الباطل في الأرض، ويمكثُ ما ينفعُ الناس.

وأنتَ واجدٌ - في كل ما ينفعُ - ثباتَ عناصره، واطِّراد نتائجه، وبغير عُنصر الثبات فيه لا يمكنُ أن يؤدِّي وظيفته، أو يُحقِّقَ منفعته، وأيُّ تغيُّر يعتريه لا بُدَّ أن يؤثِّر في النتائج، بل قد يؤدي إلى خروجه عن حقيقته، ودخولِه إلى مسمًّى آخر غير ما عُرِفَ به، أو خُلِقَ له.

وأودُّ أن أقفَ عند هذه الصفة - بالذات - وقفةً متأنيةً، قد تُتيح لنا تبيِّن جوهرها؛ حتى لا يختلط بها غيرُها، ويدخل فيها ما ليس منها.

الثباتُ المنشود مع الدعوات لا يصفو جوهره، وتتحدَّد معالمه إلاَّ في نور الإخلاص والتجرُّد لله ﷻ، وهنا يُعرف أنه اعتماد على الله أوَّلاً، وقبل كُلِّ شيء.

وكيف يعتمد على الله مَن لا يعرفه؟ أو يرجو تأييده مَن لا يُخلصُ له ويرجوه دون سواه ؟

والثبات - هنا - له خصائصُ الماء، فالماء ثابتٌ بعناصره وصفاته، متحرِّكٌ بفطرته.. إنْ سدَّت الصخورُ مجراه ارتفع صاعداً؛ ليهبط من فوقها، ويمتدَّ لتحقيق أسباب الحياة.

---

(١) محمد : ٧.

وهو يُعطي النور والضياء، ومع السدود طاقة كهرباء.

والناسُ يصنعون السُّدود، وقد عرفوا فطرة الماء، فيمضي - بعد حبسه - هادِراً لا تُغيّره السدودُ عن فطرته، بل تكشفُ عن خبيئته وجوهره.

إنه الماء، وفيه نارٌ ونورٌ، ولولا الضيق ما شعَّ نورُه، وبغير الضوائق والسدود لا تُلتَمس طاقته.

فسبحان من جعله - بإذنه - باعثَ حياةٍ، وقد عرف الناسُ أنه لا حياة بلا نورٍ ونار.

فالثبات ليس جموداً؛ إذ الجمودُ مواتٌ، وليس ثباتاً.

الثباتُ حركةٌ ذات خصائص لا تتميع..

إنه حركة تُجابه العدوَّ في مواقف متعددة، فتُرى - بخصائصها - تُجابهه في مجال المحاجَّة، فتتميز بمنطقها الغالب بسلطان الدليل، وتنفذ إلى نفسه فتحاكمه إلى فطرته.

تنشد إسلام القلب بمكارم الأخلاق، بعد أن خاطبت العقل بالحُجَّة والبرهان.

فلا يبقى لعدوِّها منفَذٌ للطعن فيها، وقد أعطته - من فضائلها وحكمتها - ما لم يجد بعده إلاَّ أن يُعادي بلا حُجَّةٍ، أو يُطاوع بالبرهان والحُجَّة.

ولا يحقق ذلك إلاَّ ثباتُها بخصائصها، وتميُّزها بمقوماتها، واختبارها بصنوف من البلاء يكشف عن هذه الخصائص، ويُظهر هذه المقوِّمات.

وذاك هو موطنُ انتصارها.. أن يراها الناس حقيقةً في نفوس، وأن يُبصروها في تجربةٍ تكشف عن معدِنها.

ولذا كان لا بُدَّ من ابتلاء الناس بعضهم ببعض؛ لتُرى فيهم.

﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾ (١)

أخرج الطبراني عَنْ عَبْد اللَّه بن سَلام، قَالَ: « إنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ هُدَى زَيْد بن سَعْنَةَ، قَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ: مَا منْ عَلامَات النُّبوَّة شَيْءٌ إلاَّ وَقَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهه ﷺ حينَ نَظَرْتُ إلَيْه، إلاَّ اثْنَتَيْن لَمْ أَخْبُرْهُمَا منْهُ: يَسْبقُ حلْمُهُ (٢) جَهْلَهُ، وَلا تَزيدُ شدَّةُ الْجَهْل عَلَيْه إلاَّ حلْمًا، فَكُنْتُ أَلْطُفُ لَهُ لأَنْ أُخَالطَهُ، فَأَعْرفَ حلْمَهُ منْ جَهْله. قَالَ زَيْدُ ابن سعْنَةَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمًا منَ الْحُجُرَات وَمَعَهُ عَليُّ بن أَبي طَالب رضي الله عنه فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحلَته (٣) كَالْبَدَويِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إنَّ بُصْرَى - قَرْيَةَ بني فُلان - قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا في الإسْلام، وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ إنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَدًا، وَقَدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ (٤) وَشدَّةٌ وقُحُوطٌ منَ الْغَيْث (٥) فَأَنَا أَخْشَى - يَا رَسُولَ اللَّه - أَنْ يَخْرُجُوا منَ الإسْلام طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فيه طَمَعًا، فَإنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسلَ إلَيْهمْ بشَيْء تُعينُهُمْ به فَعَلْتَ، فَنَظَرَ إلَى رَجُل إلَى جَانبه، أُرَاهُ عَليًّا رضي الله عنه فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا بَقيَ منْهُ شَيْءٌ، قَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ: فَدَنَوْتُ إلَيْه، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبيعَني تَمْرًا مَعْلُومًا منْ حَائط (٦) بني فُلان إلَى أَجْل كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ: لا يَا يَهُوديُّ، وَلَكنِّي أَبيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إلَى أَجْل كَذَا وَكَذَا، وَلا تُسَمِّي حَائطَ بني فُلان، قُلْتُ: بَلَى، فَبَايَعَني، فَأَطْلَقْتُ هميَانِي (٧) فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانينَ مثْقَالا (٨) منْ ذَهَب في تَمْر مَعْلُوم إلَى

(١) محمد : من الآية ٤، والآية ٦.
(٢) الحلم : الأناة وضبط النفس.
(٣) الراحلة : البَعيرُ القويّ على الأسفار والأحمال.
(٤) السَّنَة : القحْط والجَدْب.
(٥) الغيث : المطر الخاص بالخير.
(٦) الحائط : البستان أو الحديقة وحوله جدار.
(٧) الهميان : كيس يجعل فيه النفقة، ويُشدُّ على الوسط.
(٨) المثقال : وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم.

أَجْلِ كَذَا وَكَذَا، فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: اغْدُ عَلَيْهِمْ فَأَعِنْهُمْ بِهَا.

فَقَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الأَجَل [١] بِيَوْمَيْن أَوْ ثَلاث، أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامع قَمِيصه وَرِدَائه، وَنَظَرْتُ إِلَيْه بِوَجْه غَلِيظ [٢] فَقُلْتُ لَهُ: أَلا تَقْضِينِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي ؟ فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُكُمْ بني عَبْد الْمُطَّلب لَمَطْلٌ [٣] وَلَقَدْ كَانَ لي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ.

وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ، وَإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَان في وَجْهه كالْفَلَك الْمُسْتَدير، ثُمَّ رَمَاني بِبَصَره، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّه، أَتَقُولُ لرَسُول اللَّه ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَصْنَعُ به مَا أَرَى ؟! فَوَالَّذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ.

وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ في سُكُون وتُؤَدَة، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ [٤] إِلَى غَيْر هَذَا، أَنْ تَأْمُرَني بِحُسْنِ الأَدَاء، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَة، اذْهَبْ بِه يَا عُمَرُ، وأَعْطِه حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا [٥] مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَهُ.[٦]

قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بي عُمَرُ ﷺ فَأَعْطَاني حَقِّي، وَزَادَني عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِه الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ ؟ فَقَالَ: أَمَرَني رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتُكَ، قُلْتُ: وتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ ؟ قَالَ: لا، مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بن سَعْنَةَ، قَالَ: الْحَبْرُ [٧] قُلْتُ: الْحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُول اللَّه ﷺ مَا فَعَلْتَ وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ ؟

---

(١) الأجل : هو الوقت المضروب المحدود في المستقبل.

(٢) الغلظة : الشدة والاستطالة والجفاء.

(٣) المماطلة : تأجيل موعد الوفاء بالدين مرة بعد الأخرى.

(٤) أحوج : أشد احتياجاً.

(٥) الصاع : مكيال المدينة، تقدر به الحبوب.

(٦) روعته : أي أفزعته.

(٧) الحبر : العالم المتبحر في العلم.

قُلْتُ: يَا عُمَرُ، لَمْ تَكُنْ مِنْ عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلاَّ وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ اثْنَتَيْنِ، لَمْ أُخْبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلا يَزِيدُهُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ إِلاَّ حِلْمًا، فَقَدْ أُخْبِرْتُهُمَا، فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ [1] مَالِي - وَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالاً - صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ؛ فَإِنَّكَ لا تَسَعُهُمْ. قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ.

فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ. وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَبَايَعَهُ وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّي زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلا غَيْرَ مُدْبِرٍ » [2]

* * *

وهكذا عبَّرت الدَّعْوَةُ عن نفسها في موقفٍ وسلوكٍ « يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلا تَزِيدُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلاَّ حِلْمًا »

إنه ثباتُ حركةٍ وحياة، حركةٌ صالحة مُصلحة، وحياةٌ تقومُ على سُنَن ثابتة ينتفي معها العبثُ والباطلُ، ولذا فإن الكلمة للدعوة - دائماً - بأخلاقها وفضائلها، والدَّعْوَةُ - بثباتِ خصائصها - تسبقُ السيفَ بشجاعةٍ حاملة، وهي تحكُمُ السَّيفَ، فلا يُرفَعُ إلاَّ بقانونها، ولا يُخفَضُ إلاَّ بقانونها.

وهذا التميُّز في ثبات صفات الدَّعْوَة في نفس الداعية - أو قُلْ ثبات الداعية على هذه الصفات - هو الذي يُحقِّقُ للدعوة انتصارَها، ويُتيحُ للناسِ معرفتَها، وهم يرونها حياةً في نفوس، وأصالةً في معاملة وسلوك.

---

(١) الشطر : النصف.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، وأخرجه الحاكم في المستدرك.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

ولذا فإن الاتساق في تربية متجانسة متآلفة - تخضع كُلُّها لمنطق الدَّعْوَة الفطري الثابت - أمْرٌ أساس في إيجاد أمةٍ تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر.

ومن العبث أن تتناقضَ وسائلُ هذه الأمة، وهي إلى التهلكة إن تعارضت مقاصدُها، ولا ضمان لها إلاَّ باتساق الوسائل، واتفاق المقاصد؛ فإن الأمم تتلمس مواطن الضعف في أعدائها.. **وأفْتَكُ داءٍ بالأمم أن يتعارض أبناؤها أو يتناقضوا.**

ولن تكون وحدة الأمة في أجساد متراصَّة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (٢) أو بيانات تعبِّر عن موافقات، بينما الواقعُ يعبِّرُ عن تناقض واختلاف، وإنما وحدتها في ثبات صفاتها، واتحاد غايتها؛ ليسمع الناسُ - جميعاً - كلمةً واحدةً تُنتسب إلى شرف هذه الدَّعْوَة وأصالتها كما ينتسب الضوءُ إلى مصدره مهما اختلف الزمان أو المكان، وكما يُعبَّرُ الأُكُلُ عن شجره ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣)

* * *

من هنا تستطيع الدَّعْوَةُ إلى الله أن تُصارِعَ أعداءَها وهي واثقةٌ، وأن تُخاطبهم وهي واثقة، وأن تُجالسهم وهي واثقة، وأن تُفاوضهم وهي واثقة، وأن تُعاهدهم وهي واثقة.

---

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) الحشر : من الآية ١٤.

(٣) الأعراف : ٥٨.

وتنتفي العِلل جميعهاً من نفوس الدعاة – أو الأمة الداعية – عندما تتحقق الأُسس الموضوعية للدعوة في النفوس، فلا تُرى إلاَّ بها، ولا تنشد عِزَّاً في غيرها، وهي تُوقن أنها ما لم تنتصر بفضلها، لم تغلِب بقوتها.

وعندما تُجابه الأمةُ – صاحبةُ الرسالة – أعداءَها، وتكون الدَّعْوَة بفطرتها هي التي تُسيطر على شئونها، ترى التميُّز في كُلِّ شيء، في المقدمات والنتائج على السواء.

ولنقف قليلاً عند أيام "القادسية "؛ لنرى ما حققته الدَّعْوَة إلى الله في نفوس العرب، وقد كانوا قبلها على أسوأ حالٍ، وكيف استطاعوا بها أن يخرجوا إلى الدنيا سادةً وقادةً.. يسُودون بالحقِّ، ويَقُودون بالعدل.

إن الذي يتأمَّل المقدماتِ يُوقنُ بالنتائج..

إن الذي يتأمَّلُ الفارقَ بين ناسٍ وناسٍ – ناسٍ انتصر الحقُّ في نفوسهم، وزَهَق الباطل، وناسٍ يَرَوْنَ أنفسَهم بزينتهم ومتاعهم – يُوقنُ أن تحوُّلاً لا محالةَ واقع.

ومن بداية الأمر إن أنتَ جُلتَ بنظرك هنا وهناك وجدتَ النقيضَ أمام النقيض، وبضدها تتميَّزُ الأشياء.

وتستطيعُ أن تُدركَ سِرَّ ثباتِ النفوس وهي تُواجه عدوَّها، وأنت ترى ثباتَ الدَّعْوَة وهي تُعبِّرُ في نفوسهم عن نفسها.

اختار عمرُ بن الخطاب ﷺ سعدَ بن أبي وقاص ﷺ أميراً على حربِ العراق بعد مشورةٍ، وأوصاه قائلاً: ((يا سعد بن وهيب، لا يُغرَّنَّكَ من الله أن قِيلَ خال رسول الله ﷺ وصاحبه؛ فإن الله ﷻ لا يمحو السَّيئ بالسَّيئ، ولكن يمحو السَّيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلاَّ طاعته، شريفُهم ووضيعُهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم عبادُه، يتفاضلون بالعافية، ويُدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر

الأمرَ الذي رأيتَ النبي ﷺ - منذ بُعث إلى أن فارقنا - فالزمه؛ فإنّه الأمر. هذه عظتي إيَّاك، إن تركتها ورغبت عنها، حبِط عملُك، وكنتَ من الخاسرين »[1]

تأملْ كُلَّ كلمةٍ من هذه الكلمات؛ فإنها مُنْبِئَة عمَّا حدث في هذه النفوس من تحوّل، بحيث لم يَعُدْ للهوى فيها نصيبٌ.. قد ثبتت في اتجاهٍ واحد، فتوحَّدت بثباتها، وثبتت بوحدتها.

إن الاتجاهَ كُلَّه إلى مرضات الله، فلا شيءَ يشغل النفوسَ عنه، أو يثبِّطَ همَّتها في الفرار إليه.

قد فرغت من العوائق، وتخلَّصت من الشوائب، وخلصت لبارئها، فنطقت دعوةُ الله فيهم، فلم يُسمَع لغيرها صوتٌ، وعبَّروا بسلوكهم عنها فكانت لهم الحَسب والنَّسَب، فواجهوا الخُطوبَ بثباتِ الفضائل، ونازلوا الأعداءَ بسلاح الحق، واستفتحوا بنيَّةِ الخير، فجاء نصرُ الله والفتحُ المبين.

يقول عمر رضي الله عنه لسعد: « إنّي ولَّيتُكَ حربَ العراق، فاحفَظْ وصيتَّي؛ فإنك تَقدمُ على أمرٍ كريه شديد، لا يخلص منه إلاَّ الحق، فعوِّدْ نفسَك ومَن معك الخير، واستفتِح به، واعلم أنَّ لكُلِّ عادة عتاداً، فعتادُ الخير الصبر، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابَك يجتمع لك خشيةُ الله. واعلم أن خشيةَ الله تجتمع في أمرين: في طاعته، واجتناب معصيته، وإنما أطاعه مَن أطاعه ببُغْضِ الدنيا وحُبِّ الآخرة، وعصاه مَن عصاهُ بحُبِّ الدنيا وبُغْضِ الآخرة، وللقلوبِ حقائق يُنشئها الله إنشاءً، منها السِّر ومنها العلانية.. فأمَّا العلانيةُ فأن يكون حامدُه وذامُّه في الحقِّ سواء، وأمَّا السرُّ فيُعرف بظُهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، فلا تزهد في التحبُّب؛ فإن النبيِّين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه، وإذا أبغض عبداً بغَّضه.. فاعتبر منـــزلتك عند الله

(١) تاريخ الطبري : ٣٨٢/٢، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

بمنـــزلتك عند الناس ممَّن يشرع معك في أمرك » [1]

وشيَّع عمرُ الناسَ إلى موضعٍ قُرب المدينة، ثم قام فيهم خطيباً، فقال:

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثالَ، وصرَّف لكم القولَ؛ ليحيي به القلوبَ، فإن القلوبَ ميتة في صدورها حتى يحييها الله. مَن علم شيئاً فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء، والسخاء، والهين، واللّين. وأما التباشير فالرحمة. وقد جعل الله لكل أمرٍ باباً، ويسَّر لكُلِّ بابٍ مفتاحاً، فبابُ العدل الاعتبار، ومفتاحُه الزهد، والاعتبار ذِكْر الموت بتذكُّرِ الأموات، والاستعدادُ له بتقديم الأعمال، والزهدُ أخْذُ الحقِّ من كُلِّ أحدٍ قِبَلَهُ حقٌّ، وتأدية الحقِّ إلى كُلِّ أحدٍ له حقٌّ. ولا تُصانع في ذلك أحداً، واكْتَفِ بما يكفي من الكِفان؛ فإن مَن لم يَكْفِه الكِفان لم يُغنه شيءٌ » [2]

وسار سعد ومَن معه من جند الله البواسل وكُتُب عمر ووصاياه تُلاحقه، وكلها فيضٌ من نور هذه الدَّعْوَة التي تقودُ بُهداها خُطى هؤلاء.

اقترب سعدٌ من مواطن العدو، فبعث عُيوناً إلى أهل "الحيرة" ليعلموا له خبَر أهل فارس، فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولَّى "رُستُمَ" حربَه، وأمره بالعسكره، فكتب بذلك إلى عمر رضي الله عنه.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه يقول: « لا يَكْرِبنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعِنْ بالله، وتوكَّل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة [3] والرَّأي والجَلَد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفَلْجاً [4] عليهم، واكتب إليَّ في كُلِّ يومٍ » [5]

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٣٨٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) منظرة الرجل : إذا نظرت إليه فأعجبك.

(٤) وفلحا : أي نصراً.

(٥) تاريخ الطبري :٢/٣٨٩.

ونفَّذَ سعد ما أُمِرَ به، وأرسل دُعَاةً إلى الملك، وأنفذهم إليه بالمدائن، فلمَّا دخلوا عليه أمرَ التُّرجمان بينه وبينهم فقال: سَلْهُم ما جاء بهم؟ وما دعاهم إلى غَزْوِنا والوُلُوع ببلادنا؟ أمِن أجل أنَّا أجْمَمْنَاكُم [1] وتشاغلنا عنكم اجترأتُم علينا ؟

فقال "النُّعمان بن مقرِّن" لأصحابه - وهو أحد الذين أرسلهم سعد -: إن شئتم أجبتُ عنكم، ومَن شاء آثرته.. فقالوا: بل تكلَّم، وقالوا للملك: كلامُ هذا الرجل كلامنا.

فتكلَّم النعمانُ فقال: « إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً ليدُلَّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشرَّ وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلةً إلاَّ صارت فرقتين: فرقة تُقاربه، وفرقة تُباعده، ولا يدخل معه في دينه إلاَّ الخواصُّ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكثَ، ثم أُمِرَ أن ينبذَ [2] إلى مَن خالف من العرب، وأن يبدأ بهم، فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مُكرهٌ عليه فاغتبط، وطائعٌ أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضلَ ما جاء به على الذي كُنَّا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرَنا أن نبدأ بمَن يَلِينا من الأُمم، فندعوهم إلى الإنصاف.. فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حَسَّنَ الحَسَنَ، وقبَّحَ القبيحَ كلَّه، فإن أبيْتُم فأمْرٌ من الشرِّ هو أهونُ من آخر شرٌّ من الجِزاء [3]، فإن أبيْتُم فالمناجزة، فإن أجبْتُم إلى ديننا خَلَّفنا فيكم كتابَ الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيْتُمونا بالجِزَاء قَبِلْنَا ومنعناكم، وإلاَّ قاتلناكم » [4]

وضوحٌ وثقةٌ، وثباتٌ في الدَّعْوَة إلى الله في الكلمة والسلوك..

---

(١) أجممناكم : أي أرحناكم وانصرفنا عنكم من أجم الماء إذا تركه يجتمع.

(٢) ينبذ : المراد هنا الحرب.

(٣) الجزاء : بالكسر جمع الجزية.

(٤) تاريخ الطبري :٢/٣٩١.

إنهم يدعون إلى الله بالكلمة المُعبِّرة عن فطرة الدَّعْوَة في نفوسهم، ويدعون إليه حين يراهم على حالٍ لا يتناقضُ مع دعوتهم، ولا يَندُّ عن الطاعة لخَالقهم، وحالُهم أبلغُ من كلامهم، وأشدُّ تأثيراً ودلالةً على الحق.

فقال يَزْدَجِرْد: « إني لا أعلمُ في الأرض أمةً كانت أشقى، ولا أقلَّ عدداً، ولا أسوأَ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قد كُنَّا نوكِّل بكم قُرَى الضواحي فيكفوننا غاراتكم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان غرورٌ لحِقكم فلا يغرنَّكم منَّا، وإن كان الجهْد [1] دعاكُم فرضْنَا لكم قُوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهَكم، وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملِكاً يرفق بكم » فأسكت القوم.

ثم قام "المغيرةُ بن زرارة" فقال: « أيُّها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشرافٌ يستحيون من الأشراف، وإنما يُكرمُ الأشرافَ الأشرافُ، ويُعظِّمُ حقوقَ الأشراف الأشرافُ، ويفخِّمُ الأشرافَ الأشرافُ، وليس كُلُّ ما أُرسلوا به جمعوه لك، ولا كُلُّ ما تكلَّمْتَ به أجابوك عليه، وقد أحسنوا، ولا يَحسُن بمثلهم إلاَّ ذلك، فجاوبني لأكون الذي يبلِّغك، ويشهدون على ذلك.

إنك قد وصفتنا صفةً لم تكن عالماً بها، فأما ما ذكرتَ من سُوء الحال، فما كان أسوأَ حالاً منَّا، وأما جوعُنا فلم يكن يشبه الجوع، كُنَّا نأكلُ الخنافس والجِعْلان [2]، والعُقاب والحيَّات، فنرى ذلك طعامَنا، وأما المنازل فإنما هي ظهرُ الأرض، ولا نلبس إلاَّ ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.. دينُنا أن يقتُلَ بعضُنا بعضاً، ويُغيرَ بعضُنا على بعضٍ، إن كان أحدُنا لَيَدْفِنُ ابنتَه وهي حيَّة؛ كراهيةَ أن تأكلَ من طعامنا..

فكانت حالُنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً نعرفُ نسَبَه،

---

(١) الجهد : المشقة، وهو يريد الحاجة والفقر والجوع.

(٢) الجِعلان : جمع جعل بفتح الجيم، وهو دابة سوداء من دواب الأرض.

ونعرفُ وجهَهُ ومولدَه، فأرضُه خيرُ أرضنا، وحَسَبُه خيرُ أحسابنا، وبيتُه أعظمُ بيوتنا، وقبيلتُه خيرُ قبيلتِنا، وهو - بنفسه - كان خيرتنا في الحال التي كان فيها، أصْدَقُنا وأحلمُنا، فدعا إلى أمرٍ فلم يُجب أحدٌ غير ترْب [1] كان له، وكان الخليفةُ من بعده، فقال وقلنا، وصدَّق وكذَّبنا، وزادَ ونقصنا، فلم يقُلْ شيئاً إلاَّ كان، فقذف الله في قلوبنا التَّصديقَ له واتِّباعه، فصار فيما بيننا وبين ربِّ العالمين، فما قال لنا فهو قوْلُ الله، وما أمرنا فهو أمرُ الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: "إني أنا الله وحدي، لا شريك لي، كنتُ إذ لم يكن شيء، وكُلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجهي، وأنا خلقتُ كُلَّ شيء، وإليَّ يصيرُ كُلُّ شيءٍ، وإنَّ رحمتي أدركتكم، فبعثتُ إليكم هذا الرجلَ؛ لأدُلَّكم على السبيل التي بها أُنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلَّكم داري، دار السلام " فنشهد عليه أنه جاء بالحقِّ من عند الحقِّ، وقال: "مَن تابعكم على هذا، فَلَهُ ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبَى فاعْرِضوا عليه الجزية، ثم امنعوه ممَّا تمنعون أنفسَكم، ومَن أبَى فقاتلوه، وأنا الحَكَمُ بينكم، فمَن قُتِل منكم أدخلته جنتي، ومَن بقي منكم أعقبته النَّصرَ على مَن ناوأهُ "، **فاختر - إنْ شئتَ - الجزيةَ عن يدٍ وأنت صاغرٌ، وإن شئتَ فالسيف، أو تُسلم، فتنجِّي نفسَك** »

فقال يزدجرد: « أتستقبلني بمثل هذا ؟! لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقتلُ لقتلتكم.. لا شيءَ لكم عندي »

ثم قال: « ائتوني بِوِقْر من تُراب، واحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سُوقوه حتى يخرج من باب المدائن، وقال: « ارجعوا إلى صاحبكم، فأعلموه أني مرسلٌ إليكم رُستُم، حتى يَدْفنه ويدفنكم في خندق القادسية، ويُنكِّلُ به وبكم من بعد، ثم أوردوه بلادكم؛ حتى أُشغلكم في أنفسكم »

---

(١) هو أبو بكر الصديق.

ثم قال: « مَن أشرفكم ؟ » فسكت القومُ، ثم قال عاصم: « أنا أشرفُهم، أنا سيِّد هؤلاء، فحمَّلنيه » فقال: أكذاكَ هو؟ قالوا: نعم. فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدَّار حتى أتى راحلته، فحمله عليها، ثم انجذب [1] في السير حتى دخل وصحبُه على سعد، وأخبروه الخبرَ، فقال: « أبشروا فقد أعطانا اللهُ أقاليد [2] ملكهم » [3]

واشتدَّ ما صنعَ المسلمون على جلساء الملك، وراح "رُستُم" يسألُ الملك عمَّا كان من أمره وأمرهم، وكيف رآهم، فقال الملك: « ما كنتُ أرى أنَّ في العرب مثل رجالٍ رأيتُهم، دخلوا عليَّ وما أنتم بأعقلَ منهم، ولا بأحسن جواباً منهم، وأخبره بكلامٍ متكلِّمهم، وقال: لقد صدقني القوم، لقد وُعد القوم أثراً ليدركنَّه أو ليموتُنَّ عليه، على أني وجدتُ أفضلهم أحمقهم، فقد ذكروا الجزية، فأعطيته تراباً فحمله على رأسه فخرج به، ولو شاء اتّقى بغيره وأنا لا أعلم ! »

فقال رُستُم : « أيها الملك، إنه لأعقلهم؛ لأنه أراد أن يفتدي القوم بنفسه، فتطيَّرَ بذلك، وأبصرَها دون أصحابِه » [4]

رُسُلُ دعوةِ الله إمَّا أن يعيشوا لها، أو يموتوا عليها.

ويقتربُ اللقاء، ويوشك أن يأتي اليومُ الذي يُكشفُ فيه عن حقيقة هؤلاء وأولئك، فليست الحربُ - في نتائجها - إلاَّ حصاد سنين سبقتها، صِيغت فيها الأُمم على صورةٍ من الصور، فتأتي الحربُ؛ لتكشف عن صدقِ الولاء لما يعتقد الناسُ ويؤمنون به.

---

(١) انجذب : أسرع.

(٢) أقاليد : مفاتيح.

(٣) تاريخ الطبري : ٢/٣٩١، ٣٩٢.

(٤) تاريخ الطبري : ٢/٣٩٢.

طلب "رُستُم" من أحد قوَّاده - بعد أن نظَّم جيشَه - أن يُصيب له رجلاً من العرب، فأصاب رجلاً دون قنطرة القادسية، فاختطفه، ونفر العرب خلفَه، ولكن أحداً لم يدركه، وأُدخل الرجلُ على "رُستُم"، فقال له: « ما جاء بكم ؟ وماذا تطلبون ؟ »

قال: « جئنا نطلبُ موعودَ الله »

قال: وما هو ؟

قال: « أرضُكم، وأبناؤكم، ودماؤكم، إن أبيتم أن تُسلموا »

قال "رُستُم": فإن قُتلتُم قبل ذلك ؟

قال: « في موعود الله أنَّ مَن قُتِلَ منَّا قبل ذلك أدخله الله الجنةَ، وأنجز لَمن بقي منَّا ما قلتُ لك »

فقال "رُستُم": قد وُضعنا إذاً في أيديكم.

قال: « ويحك يا "رُستُم"! إن أعمالَكم قد وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرَّنَّك ما ترى حولك، فإنك لستَ تُحاول الإنس، وإنما تحاول القضاء والقدر »[1]

فاستشاط "رُستُم" غضباً، وأُمر به فضُربت عُنُقه.

* * *

دعاةٌ إلى الله لا يُرَى منهم إلاَّ الثبات.

ثباتُ الكلمة وهي تمضي فتؤدِّي غرضَها دون قصورٍ أو انحراف.

ثبات النفوس وهي تواجه الشدائدَ، فلا تُساوَم - قط - على ما تعتقده.

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٣٩٥.

نزل المسلمون بأمرِ عمرَ ﷺ حين علم أنَّ القوم سيطاولونهم، نزلوا حدودَ أرضهم، فأغاروا، وأتوا سعداً بالفتح والغنائم.

وسار "رُستُم" حتى نزل نهرَ العتيق، وسايره حتى بلغ قُرب القادسية، ثم طلع موضعاً يُشرِف منه على المسلمين، فراسل "زهرة بن الحوية" فخرج إليه، فأراده على أن يُصالحهم، ويجعل لهم جعلاً على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: « أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سُلطاننا، فكنَّا نُحسنُ جوارهم، ونكفُّ الأذى عنهم، ونولِّيهم المرافقَ الكثيرة، ونحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مَرَاعِينا، ونُميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم بذلك معاش » قال ذلك يعرِّض بالصلح ولا يُصرِّح.

قال له زهرة: « صدقت! قد كان كُلُّ ما تذكر، وليس أمرُنا أمر أولئك ولا طِلبَتُنا طلبتهم، إنا لم نأتكم لطَلَبِ الدنيا، إنما طلبتُنا وهمُّنا الآخرة، كنَّا كما ذكرتَ، يدِينُ لكم من ورد عليكم مِنَّا، ويضرع إليكم يطلبُ ما في أيديكم، ثم بعثَ الله - تبارك وتعالى - إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربِّه، فأجبناه، فقال لنبيِّه ﷺ: إنّي قد سلَّطتُ هذه الطائفة على مَن لم يدن بديني، فأنا منتقمٌ بهم منهم، وأجعلُ لهم الغلبة ما داموا مُقرِّين به، وهو دينُ الحق لا يرغَبُ عنه أحدٌ إلاَّ ذَلَّ، ولا يعتصمُ به أحدٌ إلاَّ عزَّ »

فقال له "رُستُم": وما هو ؟

قال: « أما عمودُه - الذي لا يصلح منه شيءٌ إلاَّ به - فشهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى »

قال: ما أحسن هذا، وأيُّ شيء أيضاً ؟

قال: « وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى »

قال: حسَن، وأيُّ شيءٍ أيضاً؟

قال: « والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم »

قال "رُستُم": ما أحسَنَ هذا، أرأيتَ لو أني رضيت بهذا الأمر، وأجبتكم إليه ومعي قومي، كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟

قال: « إي والله ! لا نقْرَبُ بلادَكم أبداً إلاَّ في تجارة أو حاجة »

قال: صدقتني والله. (١)

وبدا لرُستُم أن يحدِّثَ رجالَ فارس، وأن يذكرَ لهم ما سمع، فذاكرهم فحَمُوا من ذلك وأَنِفُوا. فقال: أبعدكم الله وأسْحقكم.

وبدا لسعدٍ أن يُرسلَ جمعاً من أصحابه دعاةً إلى القوم قبل أن يحتدم القتالُ، فلما أُحضروا لديه قال لهم: « إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم، فما عندكم ؟ » قالوا جميعـــاً: « نتَّبع ما تأمُرَنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمرٌ لم يكن منك فيه شيءٌ نظرنا أمثلَ ما ينبغي وأنفعَه للناس، فكلمناهم به »

فقال سعد: « هذا فعل الحَزَمَة (٢)، اذهبوا فتهيئوا ».

فقال رِبعيُّ بن عامر: « إن الأعاجمَ لهم آراءٌ وآدابٌ، ومتى نأتهم جميعاً يَروا أنا احتَفَلْنا بهم، فلا تزدهم »، فمَالَئوه جميعاً على ذلك، فقال: « فسرِّحوني »، فأمر سعدٌ أن يُسَرَّح.

وخرج ربعيٌّ ليدخل على "رُستُم" عسكرَه، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأُخبر

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٠٠، ٤٠١.

(٢) الحزمة : جمع حازم.

"رُستُم" بمجيئه، فاستشار عُظماءَ أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أُباهي أم نتهاون ؟ فأجمع ملؤُهم على التّهاون. فأظهروا الزِّبرج [١]، وبسطوا البُسُط والنمارق [٢] ووُضِع لرستم سريرَ الذهب، وأُلبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة من الذهب.

وأقبل رِبعيٌّ يسير على فَرَسٍ له قصير، ومعه سيفٌ له مشوف [٣]، وغِمْدُه لفَافة ثوبٍ خَلِق، ورُمْحُه معْلوب بقِدٍّ، معه حجفة [٤] من جلود البقر، على وجهها أدمٌ أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسُه ونَبْلُه.

فلما وصل ربعي إلى أدنى البسط، قيل له: انزل ! فلما استوت فرَسُه على البساط نزل عنها، وربطها بوسادتين فشقَّهما، ثم أدخل الحبلَ فيهما، فلم يستطيعوا أن يَنهوه، وإنما أرَوْه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استخراجهم.

فقالوا: ضع سلاحك.. فقال: « إني لم آتِكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أُريد رجعتُ »

فأخبروا "رُستُم"، فقال: ائذنوا له، هل هو إلاّ رجلٌ واحد!

فأقبل يتوكأ على رُمْحه وزُجُّه [٥] نَصْلٌ يُقارب الخَطو، ويَزُج النَّمارق والبُسط ! فما ترك لهم نُمْرُقة ولا بساطاً إلاّ أفسده، وتركه منتهكاً ممزَّقاً.

فلما دنا من "رُستُم" تعلَّق به الحرس، وجلس على الأرض، ورَكَز رمحه بالبُسط.

فقالوا: ما حملك على هذا ؟

---

(١) الزبرج : الرتبة من وشي أو جوهر.

(٢) النمارق : جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة.

(٣) مشوف : أي مجلو.

(٤) الحجفة : علبة الرمح.

(٥) الزُّج : الحديدة في أسفل الرمح.

قال: « إنا لا نستحبُ القعود على زينتكم »

فكلَّمه "رستم" فقال: ما جاء بكم؟

قال ربعي: « اللهُ ابتعثنا، واللهُ جاء بنا لنُخرِج مَن شاءَ من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتِها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنَا بدينه إلى خَلْقِه لندعوهم إليه، فمَنْ قَبِلَ ذلك منَّا قَبِلنَا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يَلِيَها دونَنَا، ومَن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله »

قال رُستُم: وما موعود الله ؟

قال: « الجنة لمن مات على قتال مَن أبَى، والظَّفر لمن بقي »

فقال رُستُم: قد سمعت مقالتَكم، فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمر؛ حتى نَنْظرَ فيه وتنظروا ؟

قال: « نعم. كم أحبُّ إليكم ؟ أيوماً أم يومين ؟ »

قال: لا، بل حتى نُكاتب أهلَ رأينا ورؤساءَ قومنا.

فقال: « إن مما سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ، وعمل به أئمتُنا، ألاَّ نمكِّن الأعداءَ من آذاننا، ولا نُؤجلهم - عند اللقاء - أكثرَ من ثلاث، فنحن متردِّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختَرْ واحدةً من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلامَ، وندَعك وأرضَك، أو الجزاء، فنكُف عنك، وإن كنتَ عن نصرنا غنيِّاً تركناك منه، وإن كنتَ إليه محتاجاً منعناك، أو المُنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك - فيما بيننا وبين اليوم الرابع - إلاَّ أن تبدأنا. أنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من تَرَى »

قال: أسيِّدهم أنت ؟

قال: « لا، ولكن المسلمين كالجسد، بعضُهم من بعض، يُجير أدناهم على

أعلاهم »

فخلف رُستُم إلى رؤساء فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً - قط - أوضحَ من كلام هذا الرجل ؟

قالوا: معاذَ الله، أتدينُ إلى شيء من هذا، وتدع دينَك لهذا الكلبَ ؟ أما ترى إلى ثيابه ؟!

فقال: ويحكم ! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنَّ العربَ تستخفُّ باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب.. ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يرون فيه ما ترون.(١)

ورجع ربعي إلى أن ينظروا إلى الأجل.

فلما كان من الغد بعثوا إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم "حُذيفةَ بن محْصن"، فأقبل في نحو من ذلك الزِّيِّ الذي كان به ربعي، حتى إذا كان على أدني البساط قيل له: انزل، قال: « لو جئتكم في حاجتي، فقولوا لملككم: أَلَهُ الحاجة أم لي؟ فإن قال: لي، فقد كذب، ورجعت وتركتكم »

فقال "رُستُم": دعوه، فجاء حتى وقف عليه وهو على سريره، فقال: انزل. قال: « لا أفعل »، فلما أَبَىَ سأله، ما بالُك جئت ولم يجئ صاحبنا بالأمس؟

قال: « إن أميرنا يحبُّ أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نَوْبَتِي »

قال: ما جاء بكم ؟

قال: « إن الله مَنَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرَفْناه وكُنَّا له منكرين، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيّها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجِزَاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة »

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٠١، ٤٠٢.

فقال: أو الموادعة إلى يومٍ ما.

فقال: « نعم. ثلاثاً من أمس »

فلما لم يجد عنده إلاَّ ذلك ردَّه، وأقبل يُحدِّث مَن معه.

فلما كان الغدُ أرسل إلى العرب: ابعثوا إلينا رجلاً، فبعثوا إليه "المغيرة بن شعبة"، فلمَّا جاء إلى القنطرة عَبَرَها إلى أهل فارس، واستأذنوا رُستُم في إجازته، ولم يُغيِّروا شيئاً من شارتهم - تقويةً لتهاونهم - وأقبل المغيرةُ عليهم والقوم في زيِّهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطهم على غَلْوة [1] لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها.

فأقبل المغيرة، وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، فَتَرْتروه [2] وأنزلوه، ومَغَثُوه [3].

فقال: « كانت تبلغنا عنكم الأحلامُ، ولا أرى قوما أسْفَه منكم.. إنا معشر العرب سواء، لا يستعبدُ بعضُنا بعضاً، إلاَّ أن يكون مُحارباً لصاحبه، فظننتُ أنَّكم تُواسون قومَكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضَكم أربابُ بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وإن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

فقالت السِّفلة: صدق والله العربي، وقالت الدّهاقين [4]: والله لقد رمى بكلام لا

---

(١) الغلوة: مقدار مرماه.

(٢) أي: زحزحوه.

(٣) أي: ضربا ليس بالشديد.

(٤) الدهاقين: زعيم فلاحي العجم .

يزال عبيدُنا ينـــزعون إليه، قاتل الله أوّلينا، ما كان أحمقهم حينما كانوا يُصَغّرون أمر هذه الأمة !

فمازحه "رُستُم" ليمحو ما صُنع به، وقال: يا عربي، إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها؛ مخافة أن يكسرها عمّا ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق.

ما هذه المغازل [1] التي معك ؟ قال: ما ضَرَّ الجمرة ألا تكون طويلة، ثم راماهم، فقالوا: ما بالُ سيفك رثّاً ؟

قال: ((رَثُّ الكسوة، حديد المضربة)) ثم عاطاه سيفه، ثم قال رُستُم: تتكلم أم أتكلم؟ فقال المغيرة: ((أنت الذي بعثت إلينا، فتكلم))، فأقام الترجمان بينهما، وتكلّم رُستُم فحمد قومه، وعظّم أمرهم، وقال: لم نزل متحكّمين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم، فليس لأحدٍ من الملوك مثل عِزّنا وشرفِنَا وسُلطاننا، نُنصَرُ على الناس ولا يُنصَرون علينا إلاّ اليوم واليومين، أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضي ردَّ إلينا عزّنا وجمعنا لعدونا شرَّ يوم هو آتٍ عليهم.. ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل معيشة سيئة، لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضُكم، وأصابكم السّنة [2] استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلاّ ما أصابكم من الجَهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكُسوة، وبغلٍ، وألف درهم، وآمر لكُلِّ رجل منكم بِوِقر [3] تمرٍ، وبثوبين، وتنصرفون عنّا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم.

---

(١) يريد السهام.

(٢) السنة : الجدب.

(٣) الوقر: الحِمل.

فتكلَّم المغيرةُ بنُ شعبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « **إن الله خالقُ كُلِّ شيءٍ ورازقُه، فمَن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له، وأما الذي ذكرتَ به نفسك وأهلَ بلادك – من الظُّهور على الأعداء، والتمكن في البلاد، وعِظَم السلطان في الدنيا – فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم، وهو له دونكم.. وأما الذي ذكرتَ فينا – من سوء الحال، وضيق المعيشة، واختلاف القلوب – فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره، واللهُ ابتلانا بذلك وصيَّرنا إليه، والدنيا دُوَل، ولم يزل أهلُ شدائدها يتوقَّعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهلُ رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنـــزل بهم، ويصيروا إليها.. ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شُكْرٍ، كان شكركم يَقْصُر عمَّا أديتم، وأسلمكم ضَعْفُ الشكر إلى تغيّر الحال** ».

ثم تحدَّث عن حالة قومه – بعد أن أرسل الله فيهم نبيَّه ﷺ – حتى انتهى إلى قوله: « **وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكُنْ لنا عبداً، تؤدي الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإلاَّ فالسيف** »

فاستشاط رستمُ غضباً، ثم حلف بالشمس: لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة، وخلُص "رُستُم" بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم ؟ ما بَعْد هذا ؟ ألم يأتكم الأوَّلون فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً، هؤلاء – والله – الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين [1]، والله لئن كان بلغ من صوْنهم لسرِّهم ألاَّ يختلفوا، فما قومٌ أبلغ فيما أرادوا منهم.

ولم يكد المغيرة يقطع القنطرة، ويصل إلى أصحابه، حتى جاء خلفه رجلٌ من

(١) وهل هم رجال إلا بالصدق ؟!

أهل فارس يقول له: إن رستم مُنَجِّم، وإنه حَسِبَ لك، ونظرَ في أمرك، فقال: إنك غداً تُفقأ عينُك.

فقال المغيرة: « **بشَّرتني بخير وأَجْرٍ، ولولا أن أجاهدَ بعد اليوم أشباهكم من المشركين، لتمنيت أن الأُخرى ذهبت أيضاً** »[1]

وأراد سعد أن يرمي بآخر ما عنده من الرأي، فأرسل إلى "رُستُم" نخبةً أُخرى من ذوي الرأي، فخرجوا حتى أتوه، وقالوا له: « إن أميرنا يقول لك: إني أدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض، ألاَ إن داركم لكم، وأمْركم فيكم، وما أصبتم من ورائكم كان زيادةً لكم دوننا، وكنَّا لكم عوناً على أحدٍ إن أرادكم أو قويَ عليكم، اتّق الله يا "رُستُم"، ولا يكونن هلاكُ قومِك على يديك! »

وتكلم "رُستُم" فوصف حالَهم، وقلّل من شأنهم كما فعل مع إخوانهم من قبل، وأشاد بقومه ورفع شأنهم.

فتكلم القوم، وقالوا: « أمّا ما ذكرتَ من سوء حالنا فيما مضى، وانتشار أمرنا، فلم تبلغ كُنْهه، وبينما نحن في أسوء حال إذ بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن، رحمةً رحمَ بها مَن أراد رحمته، ونقمةً ينتقمُ بها مِمَّنْ ردَّ كرامته.. فبدأنا قبيلة قبيلة، فلم يكن أحد أشدّ عليه، ولا أشدّ إنكاراً لما جاء به، ولا أجهد على قتله وردّ الذي جاء به من قومه، ثم الذين يلونهم، حتى طابقناه على ذلك كُلّنا، فنصبنا له جميعاً، وهو وحده فرد ليس معه إلاَّ الله تعالى، فأُعطي الظفر علينا، فدخل بعضُنا في الدين طوعاً، وبعضُنا كَرهاً، ثم عرفنا – جميعاً – الحقَّ والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة.. وكان ممَّا أتانا

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٠٢ – ٤٠٤.

من عند ربِّنا جهاد الأدنى فالأدنى، فسِرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا به لا ينقضي، حتى اجتمعت العربُ على هذا، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يُطيق الخلائق تأليفهم، ثم أتيناكم بأمر ربِّنا، نجاهد في سبيله، ونُنفّذ لأمره، ونستنجزُ موعودَه، وندعوكم إلى الإسلام وحُكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا، وخلّفنا فيكم كتابَ الله، وإن أبيتُم لم يحل لنا إلاّ أن نُعاطيكم القتال أو أن تفتدوا بالجزَية، فإن فعلتم وإلاّ فإن الله أورثنا أرضَكم وأموالَكم وأبناءَكم، فأقبلوا نصيحتنا، فوالله، لإسلامُكم أحبُّ إلينا من غنائمكم، ولَقتالكم - بعد - أحبُّ إلينا من صُلحكم، وأما ما ذكرتَ من رثاثتنا وقلّتِنا، فإن أداتنا الطاعة، وقتالنا الصبر »[1]

ومضى الحديث بين الوفد وبين "رُستُم"، ولم تصلح المفاوضةُ، وتهيأ الفريقان للحرب بعد أن بُلّغت الدَّعْوَةُ على أكمل ما يكون البلاغ. ودارتْ رحَا الحرب، وكانت قاسية ضارية، لا نخوضُ في تفصيلها، ولكننا نقف منها عند أحوال هؤلاء الرجال الذين ثبتوا عندما ثبتت في قلوبهم دعوةُ الله، فكانوا بها ولم يكونوا بغيرها.

ولعلَّ كتابَ سعدٍ إلى عمرَ يصوِّر لنا حالهم في إيجاز، ويُعطينا نتائج المعارك الضارية.

كتب سعد إلى عمرَ فقال - بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه - أما بعد: « **فإن الله نَصَرَنَا على أهلِ فارس، ومَنَحَهُم سُنَن مَن كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد، وقد لَقُوا المسلمين بعُدَّةٍ لم ير الراءون مثلَ زُهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفجاج، وأُصيب من المسلمين فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، وكانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ الليل دَوِىّ النحل، وهم آسادُ الناس، لا يشبههم الأُسود، ولم يَفْضُل مَن مضى منهم مَن**

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٠٦، ٤٠٧.

بقي إلاَّ بفضل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم »[1]

وكان عمر ﷺ - عند نزول "رُستُم" القادسية - يستخبر الرُّكبان عن جيش القادسية من حين يُصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنـــزله، فلما لقي البشيرَ[2] سأله: من أين أقبلت ؟ فأخبره. قال عمر: يا عبد الله حدِّثني. قال: هزم الله العدوَّ. وعمرُ يخُبُّ معه ويستخبره، والرجلُ يسير على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة فإذا الناس يُسلِّمون عليه بإمرَة المؤمنين، فقال الرجل: فهلاَّ أخبرتني - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين! وجعل عمرُ يقول: لا عليك يا أخي.

فقام عمرُ في الناس فقرأ عليهم الفتح، وقال: « إنّي حريصٌ على ألاَّ أدع حاجةً إلاَّ سددتها ما اتسع بعضُنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنَّا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولَوددتُ أنكم علمتُم من نفسي مثلَ الذي وقع فيها، ولستُ مُعلمكم إلاَّ بالعمل، إني - والله - ما أنا بمَلِكٍ فأستعبدكم، وإنما أنا عبدُ الله، عرض عليَّ الأمانة »[3]

* * *

على ضوء ما قدَّمنا - وهو قليلٌ من كثير - يُعرَفُ الثبات في واقع تجريبي، وتُرى أسبابه ونتائجه.. إن ثبات هذه النفوس يستند إلى أُسس راسخة قام عليها بنيانُها، وعزَّ كيانُها، نجملها فيما يلي:

أ- تجردهم لله الواحد الأحد:

حيث يتوجَّهون بعملهم إليه دون سواه، يحذرون الآخرة ويرجُون رحمةَ ربِّهم، وهم يدركون أنهم بغير هذا التجرُّد يُخذَلون ولا يُنصَرون، وهذا قول عمر ﷺ: « إنَّ

(١) المرجع السابق : ص ٤٣٤.

(٢) كان هذا البشير سعد بن عميلة الفزارى رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين.

(٣) تاريخ الطبري : ٢/٤٣٥.

المعونةَ تأتي من الله على قَدْر النيَّة، والأجر على قَدْر الحسنة، واسألوا الله العافية، وأكثروا من قوْل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله »، ثم يقول: « وخَف الله وارْجه، ولا تدل بشيء، واعلم أن الله قد وعدكم، وتوكّل لهذا الأمر بما لا خُلْف له، فاحذر أن تصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم »[1]

ب- معرفتهم الصادقة أنَّ نَصرَ الله لا يُطلَبُ إلاَّ بطاعة:

علموا ذلك، كما علموا أن ذنوبَ الجيش أخوف عليهم من عدوِّهم، فجاء عملُهم مُطابقاً لمعرفتهم، فهم صادقون في استقامتهم، صادقون في نُصحهم، يرونَ أن الإنسان يُهزَمُ من نفسه ومن عمله قبل أن يُهزَم من عدوِّه، ولعلَّك تذكر ما قاله أحدُهم لرُسْتُم: « إن أعمالَكم قد وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يَغُرَّنَّكَ ما ترى حولك »

ج- اعتزازهم بما آمنوا به:

كما اعتزوا بإيمانهم اعتزازاً مَلَكَ عليهم نفوسَهم، وتحوَّل إلى سُلوك فطريٍّ عُرفوا به، و لم يُعرَفوا بسواه، كما تُعرَفُ الشجرةُ الطيبةُ بثمرها، ولا تكاد ترى لهذه النفوس ثمراً يتنافى مع فطرة إيمانها، أو سُلوكاً يتناقض مع اعتزازها بدينها، فإذا رُئيَ غيرُهم يُبدي زينتَه من المتاع، ويتطاول بزهرة الحياة الدنيا، رأيتهم وقد صغُر كُلُّ ذلك في أعينهم، وعظُمت العاقبة، والعاقبة للتقوى.

د- تماسكهم جميعاً كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد:

كما تماسكوا فيما بينهم، وتداعَوا لما يُصيبهم بحيثُ لا يسمحُ واحدٌ منهم لنفسه أن تُؤتى أُمَّتُه من قبَله - وهو يعلم أنها لا تُؤتَى إلاَّ بمعاصيه - ولا يتركُ أحدُهم أخاه دون نُصْحٍ وتوجيه، فهم جميعاً متعاونون فيما بينهم على البرِّ والتقوى.

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٨٧.

وكان لهذا الاتساق الفريد قيمتُه في وَحْدَة الكلمة، مما لَفَتَ نَظَرَ عدوِّهم وهو يفاوضهم واحداً بعد الآخر، فلا يرى اتجاهاً لواحد منهم يَندُّ عن الآخر، حتى قال رُستُم - بعد أن فارقه المغيرة، وقد رآه بعد أن رأى غيره - قال: « ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً. هؤلاء والله الرجال، والله لئن كان بلغ من صَوْهم لسرِّهم ألاَّ يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم ».

هـ- وهم جميعاً يتزوَّدون من زادٍ واحدٍ:

ومن قبل ذلك ومن بعده يستمدُّون معرفتَهم من مصدر واحد، هو كتابُ الله ﷻ، ويتمسَّكُون بسُنَّة واحدة هي سُنَّةُ نبيِّهم ﷺ، ولعلَّك تذْكُرُ خطابَ التوجيه أو التكليف لسعد ﷺ وعمرُ ﷺ يقول له: « فانظر الأمر الذي رأيتَ النبي ﷺ - منذ بُعثَ إلى أن فارقَنَا - فالزمه؛ فإنه الأمر »؟، وتذْكُر - أيضاً - كتابَ سعد لعمرَ وهو يُبلِّغه بالفتح، فيقول فيما قال: « وأُصيبَ فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، وكانوا يُدوُّون بالقرآن - إذا جَنَّ عليهم الليلُ - دَوِيَّ النَّحْل، لا يأكلون إلاَّ طيباً، ولا يضعون إلاَّ طيباً » ؟

وإنْ شئتَ إجمالاً فقُل: كانوا حيثُ أحبَّ اللهُ ورسولُه.

وبين أيديهم كتاب الذِّكر الحكيم، يُقبلون عليه ولا يُعرضون عنه، يُحلون حلالَه، ويُحرِّمون حرامَه، يَرضُون برضَاه، ويسخطُون بسخطه، وهو محفوظٌ بحفْظ الله؛ ليكونَ حُجَّةً للناس أو عليهم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (١)

وأمام أعيُنهم خُطَى نبيِّهم ﷺ يسيرون عليها في كُلِّ أمر، ويتَّبعونها في كُلِّ شأن، وهم يحفظون من كتاب ربِّهم ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

(١) الحجر: ٩.

﴿ وَرَسُولُهُۥ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

ويحفظُون عن نبيِّهم « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » (٢)

على هذه الأُسُس كان ثباتُهم. وبها انتَفَتْ كُلُّ ألوان الوَهن والضعف من حياتهم؛ لأنَّ معالم الأشياء قد حُدِّدت أمام أعينهم، وقيمتَها قد بُيِّنت، فوضعوا كُلَّ شيء في موضعه، دون مغالاةٍ أو تجاوزٍ، وأعطوا كُلَّ شيءٍ ما يستحقُّه من اهتمامٍ أو إعراض.

عَرَفُوا أن متاعَ الدنيا قليل، فلم ينشُدوها للكثير..

وعَرَفُوا أن الآخرةَ خيرٌ لَمن اتَّقَى، فأحرزوا التقوى، وتزوَّدوا بها..

عَرَفُوا أن سلعةَ الله غاليةٌ، وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة؛ فقدَّموها راضين فرِحين مُستبشرين.

فلم يستطع العدوُّ - وقد تحدَّدت قيمةُ كُلِّ شيء أمامَ أعيُنهم - أن يُغريهم، أو يُوهن من قُواهم، أو يُضعفَ من عزائمهم، ولعلَّك تذْكُرُ ما قاله المغيرةُ بن شُعبة لهذا الذي جاء يخوِّفه ممَّا رآه رُسْتم - وكان مُنجِّماً - من أنَّ عينَه تُفقَأ غداً، فقال له المغيرةُ: « بشَّرتني بخير وأجْرٍ، ولولا أنْ أجاهد بعد اليوم أشباهَكم من المشركين لَتَمَنَّيْتُ أنَّ الأُخرى ذهبتْ أيضاً »

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) رواه مالك في الموطأ.

(٣) إبراهيم : ٢٧.

٣- اتصافه بالحكمة

ومن منطق الثَّبات لخصائص الدَّعْوَة في نفس الداعية تأتي الصفةُ الثالثةُ للداعية، وهى أن يكـــون مُتَّصفاً بالحكمة، وقد أمر الله تعالى بها في الدَّعْوَة إلى سبيله، فقـــال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ (١)

والحكمةُ هبةٌ وعطاءٌ يُنَمِّيها الكَسْبُ، ويُقَوِّيها العلمُ والعملُ.

وإذا كانت البصيرةُ من أخصِّ خصائصها، فإن البصيرةَ لا تكونُ إلاَّ بالتقوى.

وإذاً فمَعينُ الحكمة « إخلاصٌ، وفِقهٌ، وطاعةٌ ».

والداعيةُ إلى الله إنْ حُرِمَ الحكمةَ فقد حُرِمَ خيراً كثيراً، وكان إلى الإساءة أقرب منه إلى الإحسان.

إنها نعمةٌ يُؤتيها الله مَن يشاء من عباده ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢)، ومن هذا الخير يستطيعُ أن يقدِّم كثيراً إلى الناس على هُدىً وبصيرةٍ.

والحكمةُ تقتضى:

أن يكون الداعيةُ عالماً بأحوال مَن يدعوهم؛ ليختارَ العلاجَ المناسبَ لهم، وكَم من ناسٍ أساءوا من حيث أرادوا الإحسانَ - لعدم معرفتهم - وهم يحسَبُون أنهم يُحسنون صُنعاً !

ومن الحكمةِ أن يكون الخطابُ مُطابقاً لمقتضى الحال، والناس تختلف أحوالُهم

---

(١) النحل: من الآية ١٢٥.

(٢) البقرة: من الآية ٢٦٩.

فلا بُدَّ أن يتنوَّع الخطابُ؛ حتى يُلائِمَ ما سِيقَ له.

والحكمةُ زادُها من تدبُّر كتاب الله، والوقوف عند أئمة الهُدى من أنبياء الله ورُسُله، الذين واجهوا أقواماً تختلف أحوالُهم، وتتباينُ قضاياهم، فكان لهم مواقفهم التي تتَّسمُ بالحكمةِ في كُلِّ ما عَرَضَ لهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (١)

ومن رحمةِ الله تعالى بالدعاة إليه أن جعل سيرةَ نبيِّه ﷺ مَثَلاً حيًّا؛ ليأخذَ الدعاةُ منها هدايتَهم، وقد تعدَّدت المواقفُ وتنوَّعَت، والرسولُ ﷺ يُواجه كُلَّ موقفٍ بما يُلائمه، **وهذه السِّيرة الحيَّة يجبُ أن تُدرسَ في أناةٍ وفقهٍ وتدبُّرٍ؛ لتكونَ أمام الدعاة حركةَ حياةٍ، لا حِفْظَ كلماتٍ.**

ومن أبْينِ ضُروب الحكمة أن يتلطَّفَ الدعاةُ في النُّصح، وأن يعلموا أنهم دُعَاة إلى الله، فلا يُيْئسوا العاصين، أو يقنِّطوهم من رحمة الله.. إنهم يملكون دعوتَهم، ولا يملكون هدايتهم، وهذا هو توجيه الله تعالى لنبيَّين كريمَين: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

ولستُ أرى أجمعَ لصفات الخير في نفس الداعية من الإخلاص لله، وحُسْنِ التوجُّه إليه، فَبِه تنتفي جميعُ العِلل التي تَعُوق خُطى الدعاة وتهبط بهم، ويتوفَّر الحرص على الناس، وحُبُّ الخير لهم، ومنه تكون الحكمة في الوصول بهم إلى موطن الرحمة، في صبرٍ واحتساب.

ولن يكون للداعية نورُه بغير مَدَدٍ من ربِّه سبحانه، ولن تصل كلماتُه إلى

(١) الأنعام: من الآية ٩٠.

(٢) طه : ٤٤.

القلوب بغير إخلاص وتجرُّد ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (١)

وكم من ناسٍ تسمعُ منهم كلماتٍ مُنَمَّقَة، بل تسمعهم يقرءون القرآن - وما أعظم شأنه - فتتَّهم حالَك أو حالهَم ؟! ومن الناس ناسٌ قد تُعجزهم الكلمات، ولكن ملامح الصدق فيهم تُعبِّر وتؤثِّر، وقد تَصْمُت الثَّكْلَى، ولكنها تُحرِّكُ القلبَ، وتُثير الدمع ! إن حالها يعبِّر حيث سَكَتَ لسانُها، وتعبير الحال أبلغُ من تعبير المقال « ومُعلِّمُ نفسَهُ ومؤدِّبُها أحقُّ بالاحترام من مُعلِّم الناس ومؤدبهم »

ومراعاة الحالة النفسية للمخاطب أمرٌ أساس في دعوته؛ فالنفس تنفُر من التشهير، وربما دفعها إلى الإصرارِ والمكابرة والعِناد، وكان الداعية - بمسلكه هذا - منفِّراً لا داعياً.

وقد كان الرسول ﷺ يعرفُ أفعالَ ناسٍ بأعينهم، ولكنه كان يتجنَّبُ ذِكْرَهُم، ويقول: « **مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ؟** » (٢) وفى هذا إعطاء فرصة واسعة للمخطئ أن يُراجع نفسه، ولغيره أن يتَّعظ ويعتبر.

ومن الحكمة الاعتدال والموضوعية في أسلوب الدعاة.

وأعنى بـ (الاعتدال) ألاَّ تدفع الغيرةُ على الدَّعْوَةِ أن تُعْرَضَ بغير فطرتها - وفطرتُها الرحمةُ، وسبيلُها الحكمة - وألاَّ يقع الداعيةُ في قبضة اليأس لما يرى من سُوء حال الناس.. وعليه أن يعرف - أولاً وآخراً، وكما قلتُ من قبل - أنه يملك دعوةَ الناس، ولا يملك هدايتَهم، فليكُنْ مُخلصاً واعياً، حكيماً في تبليغ دعوته، وألاَّ يفقدَ زادَه من الإخلاص والتقوى؛ ففي الإخلاص النجاح والنجاة، وإنَّ أحداً لا يستطيع أن

(١) النور: من الآية ٤٠.

(٢) رواه مسلم.

يحُولَ بينه وبين الإخلاص.

وإذاً فلا معوِّق - قط - لعزِّ الإنسان ورفعته، وفوزه وفلاحه، إذا ما أدرك أن ذلك كُلَّه مرتبطٌ بأخلاق، وأدرك أن حاجتَه عند الله وليست عند أحدٍ من الناس، فأحْسَنَ التوجُّه إليه، واتَّسَمَ بالصِّدق في جميع شئونه.

وأعنى بـــ (الموضوعية) أن يكون دارساً للقضيَّة التي يُريد علاجَها، مُدركاً علَلَها وأبعادَها، مُستنِداً في علاجه إلى فطرةِ الدَّعْوَةِ نفسِها، وهى تهدفُ إلى الرحمة، وتفتحُ بابَ الرجوعِ والتوبة.

والدَّعْوَة الإسلامية - في عصرها الحاضر - تمضى في اتجاهين، أو قُلْ: في اتجاه واحدٍ ذي شعبتين: اتجاه داخلي، واتجاه خارجي.

وأعنى بالاتجاه الداخلي: عملَها في الديار التي اعتنقت الإسلامَ، وآمنت بها، وأُرِيدَ لها أن تخلطَ بين عاداته وتقاليده، وبين مُحاكاةِ الغير باسم التطور والتقدم.

أما الاتجاه الخارجي فهو: عملها بين الذين لم يؤمنوا بها، وهذا الاتجاه تحُثُّ عليه رغبةٌ أصيلةٌ في القيام بحقِّ الدَّعْوَةِ ونشرِها بين العالمين بدافعٍ من فطرة الدَّعْوَةِ نفسِها وما تأمُرُ به.

وهنا موضعُ المعاناة والمشقة؛ فإن الدَّعْوَةَ - منذ وُجِدت - كانت القدوة، وهى العامل الأساس في نشرها وتعلُّقِ الناس بها، القدوة بالرسول ﷺ والأُسوة به، والقُدوة بأصحابه الذين رآهم الناسُ فرأَوْا فيهم سيرتَه ﷺ وهَديه.

فإذا ما هبطتْ ديارُ الإسلام عن المستوى الذي ينشده الإسلامُ، كانت بسلوكها داعيةً للبُعْدِ عنه، وإن دَعَتْ بقولِها إليه، وتحقق - بواقعها المتناقض - فتنة الناس وهم ينصرفون عن دين الله أحوج ما يكونون إليه.

ويُمثِّل المسلمون - بواقعهم المتناقض - عِبئاً ثقيلاً على الإسلام نفسِه؛ إذ لم يحملوه، بل حُمِلوا عليه، ولم يُنصفوه من أنفسهم، فاستحالَ على الناس أن يروه في غير واقعهم.

وليس كُلُّ الناس بقادرٍ على أن يدرسَ وأن يتدبَّرَ، ولكن جميعَ الناس يتأثرونَ بما يقعُ أمامَ أعينهم، ويُقلِّدون الناجحَ في شئونه، والأُمَمُ كالأفراد يُقلِّدُ بعضُها بعضاً، ويأخذُ بعضُها عن بعضٍ.

ومن هنا كان للحديثِ عن الحكمة مجالٌ أوسع، نُرجئه إلى النظر في الواقع المعاصر؛ لنرى - على ضوء معرفتنا له - ما يُناسبُ حالَنا، ونجتهدُ - مستعينين بالله - في معرفةِ الوسائل الصالحةِ لمواجهة هذا الواقع.. سواء في داخل الديار الإسلامية، أو خارجها، والله المستعان.

* * *

٤- حُسن توكله على الله

ومن صفات الداعية حُسْنُ توكله على الله تعالى. وهى صفةٌ ترتبطُ بالإيمان، وتدُلُّ عليه كما تدلُّ قوةُ الحركة على ما ورائها من مكنون الدَّفْعِ والقوة.

قال موسى عليه السلام لقومه وهو يواجه بهم عدوًّا مُتكبِّراً لا يؤمن بيوم الحساب: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [1]، ولم يكن قد آمن من قومه إلاَّ القليل ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [2]، ولكنَّه واجَه بهذا القليل خَصماً عنيداً، فانتهى بهم التوكلُ على الله إلى النَّجاة.

وموسى عليه السلام - يُذكِّرُ قومَه - في جميع فترات ضعفهم وخَوْفهم - بحُسْنِ التوكل على الله، والاعتماد عليه ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [3]

ومن قبل موسى نرى نوحاً عليه السلام يعتصمُ بالتوكل على الله.

---

(١) يونس : ٨٤- ٨٦.

(٢) يونس : من الآية ٨٣.

(٣) الشعراء :٦١- ٦٨.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

وقد دعا قومَه، فكذّبوه وأعرضوا عنه ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٢)

دعاهم فلم يستَجبْ منهم إلاّ القليل، وقد اعتصمَ هو ومَن معه بالتوكل على الله، فكانت العاقبة، وكانت العبْرةُ والعظة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٣)

ونرى هوداً عليه السلام يعتصمُ بالتوكل على الله، وقد أدّى رسالَةَ ربِّه، وبلّغ ما أُمر به.

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ

(١) يونس : ٧١.
(٢) الشعراء : ١١٦.
(٣) الشعراء : ١١٧- ١٢٢.

رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١)

اعتَصَمَ هو والذين آمنوا معه بالتوكل على الله، فكانت العاقبةُ وكانت العِظةُ والعِبرةُ.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢)

واعتصم شعيب عليه السلام بالتوكل على الله وهو يُذكِّرُ قومَه بمصارع المكذِّبين من قبل.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

فما لقي من المكذبين إلاَّ التهديدَ والوعيد، فأعلن توكُّله على الله، واعتمادَه عليه هو والذين آمنوا معه.

---

(١) هود : ٥٤- ٥٧.

(٢) هود : ٥٨- ٦٠.

(٣) هود : ٨٨- ٩٠.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

اعتَصَمُوا بالله وتوكَّلوا عليه، فكانت العاقبةُ وكانت العِظةُ والعِبرةُ.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٢)

ونرى يعقوبَ عليه السلام وقد أبدى النُّصْحَ لأولاده - بعد أن فُجِعَ في ابنه يوسف على أيدي إخوته - نراه يعتصم بالتوكل على الله.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٣)

وترى ومضات الثقة وحُسن التوكل على الله في كلماته، وهو يستَحثُّ أبناءه على الفِرار من اليأس والقعود، ويأمرهم بالتحرك المُنبئ عن توكلهم على الله ﴿ يَٰبَنِىَّ

(١) الأعراف : ٨٨، ٨٩.
(٢) هود : ٩٤، ٩٥.
(٣) يوسف : ٦٧.

﴿ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [1]

إنه توكُّل، لا تواكُل.

وأكاد أرى - في منطق النبي الكريم - حركةَ النفس، وحركةَ الحسِّ معاً، حركة النفس باليقين، وحركة الحسِّ بالاستجابة لهذا اليقين ﴿ ٱذْهَبُوا۟ ﴾، ﴿ فَتَحَسَّسُوا۟ ﴾، ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ ﴾.

فالتوكل حركةٌ لا قُعود، حركةٌ لا هُدأ ولا تعرفُ اليأسَ ولا القنوط.. حركةٌ موصولة بالثقة في العليم القادر ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [2]

فكانت العاقبةُ وكانت العظَةُ والعبْرَةُ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [3]

ونرى خليلَ الرحمن إبراهيمَ عليه السلام يُعلنُ توكُّله على الله ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [4]

يُعلن - دائماً - توكله على الله، وفي لحظات الضِّيق والشدة، حين أُلقِيَ في النار

(١) يوسف : ٨٧.
(٢) فاطر: من الآية ٤٤.
(٣) يوسف : ٩٩.
(٤) الممتحنة : من الآية ٤، الآية ٥.

يقول: « حسبي الله ونِعْم الوكيل ».

روى البخاري في صحيحه عَن ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما -: « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ »[1]

وفي رواية أخرى للبخاري، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: « كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ »[2]

فكانت العاقبةُ وكانت العظَةُ والعبْرَةُ ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[3]

* * *

ومع خاتم الرُّسُل – صلوات الله وسلامه عليه – ترى التوكُّلَ على الله بارزاً في شئونه كُلِّها، وترى آياتِ الوحي التي أُنزلت عليه تأتي بالتعليل لما تأمُرُ به، أو تنهى عنه.. فحين تأمُر بالتوكل على الله تذكرُ من صفاته ما يُجيبُ عن سؤالٍ مُفترَض: لماذا أتوكلُ على الله؟ وحين تنهى عن التوكل على غير الله تأتي بعِلَّة النَّهي، بل تذكر النتائجَ هنا وهناك.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ

(١) آل عمران : ١٧٣.
(٢) رواه البخاري.
(٣) الأنبياء : ٦٩، ٧٠.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

والنتائج على أولئك الذين يتوجَّهون إلى غير الله، ويتَّخذون من دونه أولياء نتائجُ مُهلِكة خاسرة.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٣)

وانظر عندما تدعو الآياتُ إلى التوكُّل على الله، كيف تذكر من صفات الله ما يُؤنِسُ النفس، ويُطمئِنُ القلبَ، ويُحقِّقُ الثِّقةَ واليقين.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤)

أيُّ إيناسٍ للنفس أعظمَ من أن يُذكرَ الرحمن، وأنْ يُتوكَّل عليه !

---

(١) الزمر : ٣٨.

(٢) العنكبوت : ٤١.

(٣) الحج : من الآية ٣١.

(٤) الرعد : ٣٠.

إنه نعْمَ المولى ونعْمَ النصير ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

أيُّ راحةٍ للنفس وهى تركَنُ إلى مَن بيده ملكوتُ السماوات والأرض، وهو رب العرش العظيم !

بل أيُّ استقامةٍ لها وهى تُدركُ أنَّ مَن تدعوهم من دون الله ما يملكون من قطمير !!

إنها استقامةُ مَن لا يتوزَّع أو تتفرَّق به السُّبُل ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٢)

بل أيُّ ثِقَةٍ تتحقَّقُ للنفس وهى تُوقِنُ أن العبادَ لو اجتمعوا على ضُرٍّ لم يحققوه، ولن ينفذ إلاَّ ما كتبه الله تعالى.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣)

إن الناس يخشون الغَدَ المجهولَ، ويحتسبون له بما يرونه من أسبابٍ، وكثيراً ما ترى الناس يُخطئون، فيركنون إلى مالٍ أو جاهٍ أو متاعٍ، مع أنها أعراضٌ زائلة !

فأيُّ طمأنينةٍ راسخةٍ في النفوس عندما يركنُ الإنسانُ إلى مَن له غيبُ السماوات

---

(١) التوبة : ١٢٩.

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

(٣) التوبة : ٥١.

والأرض، وإليه يرجعُ الأمرُ كُلُّه.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

إن الآيات حين تدعو إلى التوكل تذكرُ من الصفات ما يُجيبك عن سبب التوجه إلى الله دون سواه.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢)

إن التوكُّلَ على غير الله اعتمادُ هالكٍ على مفقود، والله - وحده - هو الحيُّ الذي لا يموت.. ولذا نرى الرسولَ ﷺ يُفوِّضُ الأمرَ كُلَّه إليه، ويتوكل في جميع شئونه عليه.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ - لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ - أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ » (٣)

وعن أُمِّ المؤمنين أُمِّ سلمة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ « كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِه قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أَضِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » (٤)

---

(١) هود : ١٢٣.

(٢) الفرقان : ٥٨.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

وعن أنس ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ. قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ. فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟! »[1]

وهذا من نتائج التوكل على الله « هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ ».

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[2]

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[3]

ومن نتائج التوكل ما يجده المؤمنُ من حَسَنَةِ الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[4]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) الطلاق : من الآية ٣.

(٣) النحل: ٩٨، ٩٩.

(٤) النحل : ٤١، ٤٢.

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

ومن نتائجه الحُب الإلهي الذي تطيبُ به نفوسُ الكرام، وتسعى إليه ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣)

* * *

إن الرُّسُل جميعاً - ومَن تبعهم من المؤمنين - لا يفرِّطون - قط - في عُدَّة التوكل، وهم لا يرون أنفسهم بغيرها، ولا يُبلِّغون دعوتَهم بِدُونِها، وما كان لهم أن يُجابِهوا قُوى الشرِّ والباطل بغيرِ التوكل على الله، وما كان لهم أن يَصْدَعوا بما أُمروا به إلاَّ بحُسن الاعتماد عليه ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤)

وتلك وحدها التي يطيرُ لها لُبُّ المنافقين، وتلك وحدها موضعُ العزَّة في نفوس المؤمنين ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ

(١) العنكبوت : ٥٨، ٥٩.
(٢) الشورى : ٣٦.
(٣) آل عمران : من الآية ١٥٩.
(٤) إبراهيم : من الآية ١١، الآية ١٢.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)

وها وحدها يُجابَهُ العصاةُ المتكبرين ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ (٢)

توكَّلْ على الله؛ لأنَّك على الحق، وجديرٌ بمَن كان على الحقِّ أن يتوكَّلَ على الله.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (٤)

والتوكل صفةٌ تُحقق استقامةَ النفس مع مقتضيات الحق، دون مَيْلٍ أو تردُّد؛ فإنَّ عواصفَ الفتنةِ حول الدعاةِ كفيلةٌ أن تُزحزحهم، وأن تميلَ بهم؛ فراراً من فتنة البلاء، أو استجابةً لبَريق الإغراء.. ولن يعصمهم إلاَّ حُسْنُ التوكل على الله، والاعتماد عليه، ولن يحُول بينهم وبين الاستجابة لبريقِ المنافع إلاَّ عِظَم الخالق عندهم، ولذا كان النداء الذي يُطلَبُون به إلى بيوت الله في اليوم خمس مرات « **الله أكبر** »، وكان ترديد الكلمة - ما بين قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ - تربيةً للنفس؛ حتى لا تَزلَّ أو تَضِلَّ، فإن عِظَمَ الخالق عندك يُصغِّر المخلوقَ في عينك.. وعندها تبطل المغريات، وتهون الشدائد والمشقات.

---

(١) الأنفال : ٤٩.

(٢) الشعراء : ٢١٦- ٢٢٠.

(٣) النمل : ٧٩.

(٤) الأحزاب : ٤٨.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ حُدِّثْت أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا - وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ -: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،أَلا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا؛ لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكُفَّ عَنَّا ؟. وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ.

فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ..

فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّك مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّك قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْت بِهِ أَحْلامَهُمْ، وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا؛ لَعَلَّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ »

قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْت إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً. وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاك عَلَيْنَا حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك. وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاك عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيك رِئْيًا [1] تَرَاهُ - لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك - طَلَبْنَا لَك الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ غَلَبَ التَّابِعُ [2] عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ.

حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، **قَالَ: « أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ »**

---

(١) الرئي : ما يتراءى للإنسان من الجن.

(٢) التابع : من يتبع من الجن.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: « فَاسْمَعْ مِنّي »

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ ﷺ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾ (١)

ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه ﷺ فيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْه، فَلَمّا سَمعَهَا منْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْه خَلْفَ ظَهْره مُعْتَمدًا عَلَيْهمَا يَسْمَعُ منْهُ، ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ إلَى السّجْدَة منْهَا، فَسَجَدَ. **ثُمّ قَالَ: « قَدْ سَمعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد مَا سَمعْتَ، فَأَنْت وَذَاكَ »**

فَقَامَ عُتْبَةُ إلَى أَصْحَابه، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْض: نَحْلفُ باللّه لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيد بغَيْرِ الْوَجْه الّذي ذَهَبَ به.

فَلَمّا جَلَسَ إلَيْهمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَك يَا أَبَا الْوَلِيد ؟

قَالَ: وَرَائي أَنّي قَدْ سَمعْتُ قَوْلاً وَاللّه مَا سَمعْت مثْلَهُ قَطّ، وَاللّه مَا هُوَ بالشّعْر وَلا بالسّحْر وَلا بالْكهَانَة. يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، أَطيعُوني وَاجْعَلُوهَا بي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذَا الرّجُل وَبَيْنَ مَا هُوَ فيه فَاعْتَزلُوهُ؛ فَوَاللّه لَيَكُونَنّ لقَوْله الّذي سَمعْتُ منْهُ نَبَأٌ عَظيمٌ، فَإنْ تُصبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفيتُمُوهُ بغَيْركُمْ، وَإنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَب فَمُلْكُهُ مُلْككُمْ، وَعزّهُ عزّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاس به. قَالُوا: سَحَرَك – وَاللّه يَا أَبَا الْوَلِيد – بلسَانه. قَالَ: هَذَا رَأْيي فيه فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ. (٢)

* * *

(١) فصلت : ١-٤.

(٢) سيرة ابن هشام : ٢/١٣١.

عرض عتبةُ ما عرضَ، ولكنَّ الرسول ﷺ ليس مع شيء مما عرض، إنه هنا مع القرآن، أليسَ فيما تُلي عليه من آيات ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؟[1]

إنه يستمسك بما أُوحي إليه، ولا يتطلّعُ إلى شيءٍ من زُخرف الحياة وزينتها.

إنه لا يُساوَمُ على دعوته، ولا يقبل - وهو يعتمد على الله - أن يُزحْزَحَ عنها، وهذه قولته: « وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ »[2]

إنه يدعوهم إلى ما هو عليه، لا أنْ يُدعَى إلى ما يحرصون عليه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾[3]

إن جميع المغريات - هنا - قد تلاشت، وبَدَت تفاهتُها، وظهر اليقينُ، ومضى التوكل على الله مَهيباً أبيّاً يصدع بالحق، ويجهر بالصدق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) فصلت : ٣٣- ٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام : ٢/١٠١.

(٣) فصلت : ٦.

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [1]

توكُّلٌ على الله تمتدُّ به الدَّعْوَةُ فتواجه قوى الشرِّ في ثباتٍ، وتَصْرَعُ قوى البغي في عدلٍ، وترفعُ ميزانَ الحقِّ في تجرُّدٍ، وتصُون كرامةَ الإنسانِ بإقرار الحقوق والواجبات.

* * *

وجديرٌ بالدعاةِ أن يقفوا عند هذه الآيات التي تلاها الرسول ﷺ من سورة فصلت [2]؛ ليدركوا حكمةِ اختيارها في هذا الموقف، وهم واجدون فيها - بتوفيق الله - دروساً في مجال دعوتهم، ومنها:

أ- الاستمساك بأصول الدعوة:

فكثيراً ما يحاول المخالفون أو المنكرون أن يميلوا بالدعاةِ إلى حوارٍ جانبي يصرفوهم به عن الحقيقة الكاملة، ويُشغلوهم بصغائرِ الأمور، أو يستخفّوهم بما يُثيرون حولهم؛ ليشغلوهم بأنفسهم، ويصرفوهم عن دعوتهم.

ونجد الرسول ﷺ - هنا - لا يلتفت لما عرضه عتبةُ من أمورٍ، بل يُعرِض عنها إعراضاً يحدِّدُ قيمتَها، وأنها لا تستحقّ أن يُوقَفَ عندها، ولو في كلماتٍ عابرة.

ونراه ﷺ يتوجَّهُ إلى أصول دعوته، ونرى عُتبةَ يعود بغير الوجه الذي جاء به.. ألم يسمع عتبة فيما سمع من آيات ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ

(١) الأحزاب : ١- ٣.

(٢) من أول السورة إلى الآية ٣٨.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [1] ؟

فأيُّ قيمةٍ للأمور التي عرضَهَا بعدما سمع عن مصائر مَن كذَّبُوا، وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً، وأثاروا الأرض وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها ؟!

لقد عاد عتبةُ - فعلاً - بغير الوجه الذي جاء به؛ لأنه جاء بأمور ظنَّها ذات تأثير وقيمة، فعاد وقد رأى قيمتهَا عند رسول الله ﷺ، فهي لم تستحق عنده أن يذكرها، ولو بكلمة واحدة.

عاد وهو يُوقِن أنه أمام أمرٍ ذي شأن خطير، حدَّثَ عنه فقال: « قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً، وَاَللّه مَا سَمِعْت مِثْلَهُ قَطّ، وَاَللّه مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلا بِالسِّحْرِ وَلا بِالْكِهَانَة. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ؛ فَوَاَللّهِ لَيَكُونَنّ لِقَوْلِهِ الّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ »

والدرس هنا للدعاة: أن يقفوا ثابتين عند أصولِ دعوتهم، وألا يُستَدْرَجُوا بعيداً عنها.

ب- علاج الموقف بما يُلائمه:

وأكملُ علاجٍ إنما يكون بفطرةِ القرآن وجوامع الكَلِم، ولذا رأينا الرسولَ ﷺ

(١) فصلت : ١٣- ١٧.

يُجيبه بآياتٍ من كتاب الله ﷻ.

واختيار الرسول ﷺ لهذه الآيات فيه درسٌ للدعاة، درسُ معرفة وحكمة في اختيار الموضوع، وأن يُساق أسمى لفظٍ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

ولئن كان هذا هو أسلوبُ القرآن، فإنَّ من الواجب على الدعاة - وقد أحسنوا اختيار موضوعهم - أن تسمو كلماتُهم، وأن تكون - دائماً - أعلى في دَلالتها وأسلوبها، وأن يقتبسوها من القرآن، وأن يكون لهم من رسولهم ﷺ - في كُلِّ شأن - أُســوة، وهو مَنْ هُو ﷺ في فصاحة لسانه وبلاغة منطقه، فقد كــان ﷺ من ذلك « بالمَحَلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجهَل. سلاسةُ [1] طَبْع، وبراعةُ مَنْزَع [2] وإيجازُ مَقْطَع [3]، ونَصَاعَةُ [4] لفظ، وجزالةُ قول، وصحةُ معان، وقلةُ تكلُّف، أُوتي جوامعَ الكَلم [5]، وخُصَّ ببدائع الحكَم، وعُلِّم الْسنَة العرب، فكان يخاطبُ كُلَّ أُمة بلسانِها، ويُحاورها بلُغتها، ويُباريها [6] في مَنْزَعٍ بلاغتِها » [7]

أما عن الموضوع فلنقف وقفةً متدبِّرةً خاشعةً عند الآيات التي تلاها الرسولُ ﷺ، فإنها تُحدِّد مَصْدرَ التنْزيل، والغايةَ منه. إنه من الرحمنِ الرحيم، والرسولُ ﷺ يُوحَى إليه، وهو مأمور بالتبليغ، ونسبة التنْزيل إلى الرحمن الرحيم تُؤْذِنُ بالغاية منه، وهي الرحمة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [8]

---

(١) سلاسة : أي سهولة.

(٢) البراعة : مصدر برُع الرجل أي فاق أقرانه في العلم وغيره.

(٣) مقطع : أي تمام كلام.

(٤) نصاعة : النصاعة الخلوص.

(٥) جوامع الكلم : هو جمع جامعة.

(٦) يُباريها : يُقال : فلان يُباري فلاناً، أي يعارضه.

(٧) الشفاء للقاضي عياض.

(٨) الأنبياء : ١٠٧.

وهذه الرحمة يتحدَّدُ موضوعُها في عقيدة وعمل.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ﴾ [1]، أو قُل في إيمان واستقامة، وهو ما عبَّرت عنه هذه الآيةُ، والآية التي تلاها الرسول ﷺ من بعدُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾ [2]

وهو ما ذكره الرسولُ ﷺ عندما طلب منه السائلُ أن يحدِّثَهُ بأمرٍ عظيمٍ يعتصمُ به، ففي صحيح مسلم عن أبي عمرو - وقيل أبي عَمْرة - سفيان بن عبد الله ﷺ قال: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثم اسْتَقِمْ » [3]

وهي وصيةٌ جامِعَةٌ لخِصال الدِّين كُلِّها.

وبعد ذِكْرِ الموضوع والغاية، تأتي النتائج.. وهي في جانبِ مَن آمنَ واستقام: نجاةٌ، وأَمْنٌ، وفوزٌ، ورضوانٌ، وفي جانب مَن كذَّب وعَصَى: خِزيٌ، وهُوانٌ، ودمارٌ، وخُسران.

ويعرض الجزاء في ثلاث صور متتابعة، يُلاحَظ في عرضها البدءُ بنتائج الكُفر؛ لأن المقصود هو إخراج الناسِ من ظُلمات الكُفْر إلى نُورِ الإيمان.. فليكن الحديث عنه أولاً، فإذا ما أُحيط بالنفس - وقد رأتْ عاقبةَ الإصرار عليه - التَمَستْ سُبُل النجاة، وتهيَّأت لمعرفةِ أسبابه، فجاء الحديث عن الإيمان.

---

(١) فصلت : ٦.

(٢) فصلت : ٣٠.

(٣) رواه الترمذي.

الصورة الأولى: تأتي مجملة.

١- ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ ﴾ (١)

٢- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ﴾ (٢)

ثم تأتي الصورة الثانية مُفصَّلة على الترتيب من بيان الجزاء في الدنيا، ثم في الآخرة، وقبل أن تذكر النتائج تقرِّر أن الكُفْرَ في حقيقته نُكرانٌ لفضل الله، وأنه نشازٌ يتنافى مع الخضوع والتسبيح من كُلِّ شيءٍ، وهو هباءٌ لا يستند من البرهان على شيءٍ.

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾ (٣)

ثم يأتي عَرْضُ الصورة الثانية المفصَّلة للجزاء، ويبدأ - كما قلتُ - بنتائج الكُفر؛ لتنفُرَ النفسُ منه، وتلتمس المخرج.

---

(١) فصلت : من الآية ٦، الآية ٧.

(٢) فصلت : ٨.

(٣) فصلت : ٩- ١٢.

الصورة الثانية:

١- ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

٢- ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

ثم تأتي الصورةُ التالية بتفصيلٍ من نوعٍ آخر، تُرى فيه المعاداة للكُفْرِ من كُلِّ شيء، حتى من الأعضاء التي عاونت، والجوارحِ التي أُخضعت، وترى الموالاة للإيمان، والنُّصرَةَ والأمن والبشرى من الله وملائكته.

الصورة الثالثة:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١) فصلت : ١٣- ١٧.

(٢) فصلت : ١٨.

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

ويا لها من عاقبة تَعسَة عندما يُرَى المخدوعون يلتمسون الخادعين؛ لينالوا منهم هذا النَيْل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

---

(١) فصلت : ١٩- ٢٨.

(٢) فصلت : ٢٩- ٣٢.

ثم تنتهي إلى بيان مكانة الدعاة إلى الله، وما يجب أن يكونوا عليه من أخلاق العفو والصبر، وما أعدَّ اللهُ لهم من عظيم المثوبة والأجر ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

وعلى الدعاة أن يستعيذوا بربِّهم إذا ما وسوس لهم الشيطانُ لينْزِل بهم عمَّا يجب أن يكونوا عليه من أخلاق العفو، ودَفْعِ السيئة بالحسنة، ومن الصبر على المكاره، وألاَّ يصيخوا إليه إنْ هو أرادَ أن يُبعدهم عن هذه المكانة العالية - مكانةِ الدعاة إلى الله - فإن ما يُحيط بهم من فتنةٍ يفتحُ للشيطانِ أبواباً إلى النفس يُسَوِّل لها ويُزيِّن ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢)

ثم تأتي آيةُ السجدة التي ختم الرسولُ ﷺ تلاوتَه بها، وفيها ما فيها من دعوةٍ إلى تكريم الإنسان بعبادةِ ربِّه، بإخراج العباد من عبادةِ المخلوق إلى عبادة الخالق، فالشمسُ والقمرُ والليلُ والنهارُ آياتٌ مسخَّرةٌ للناس، نعمةً من الله ورحمةٍ، ففيها منفعةٌ ودلالةٌ..

إنها مُسخَّرة بأمره تعالى لمتعتِكُم ومنفعتكم، وهي تدلُّ على الله، وتدعو إليه، فهل يليقُ أن يأخذَ الإنسانُ منها ما يأخذه الحيوانُ، ويُعرض عن الدلالة التي يُخاطب بها ويتميز ؟!

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا

(١) فصلت : ٣٣- ٣٥.

(٢) فصلت : ٣٦.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (٢)

نعم.. تأتي آيةُ السجدة بعد هذا البيان لتدعو الناسَ إلى عبادةِ الخالق؛ تكريماً للإنسان أن يزِلَّ أمامَ شجرٍ أو حَجَرٍ أو بَشَرٍ، أو يسجُدَ لشمسٍ أو قمرٍ؛ فإنها مخلوقاتٌ والله هو الخالق.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤)

* * *

يصدَعُ الرسولُ ﷺ بما أُمِرَ به – متوكّلاً على الله – أمام طُغَاةٍ لم يتركوا باباً من أبواب الفتنة إلا سَلَكُوه.. من إغراءٍ – كما رأيتَ – ومن بَطْشٍ، وتعذيبٍ، ومقاطعةٍ ومُحاصرةٍ، واستهزاءٍ وسُخريةٍ، وتحريضٍ وصَدٍّ، وإخراجٍ من الدِّيار والأموال..

والرسول ﷺ يُقابِلُ كُلّ ذلك بالثبات على كلمةِ الحق دُونَ مَيْلٍ، أو رُكونٍ لغير الله.

---

(١) الأعراف : ١٧٩.

(٢) محمد : من الآية ١٢.

(٣) النحل : ١٧.

(٤) فصلت : ٣٧، ٣٨.

ولم تُفلح جميعُ الوسائل في فتنة المؤمنين الصادقين وهم يرون الرسولَ ﷺ يزداد ثِقَةً كُلَّما ازداد الخطرُ واشتدَّ، ويزدادُ بِشراً كُلَّما أمعنَ الكفارُ في الغدر والكيد.

وهو في جميع الأحوال يذكُرُ ربَّه، ويركن إليه.

ألم تره ﷺ وعُصبة الشر تُحيطُ بالغار، وأبو بكر ﷺ يرى وُقوفَهم عنده، فيخشى أن يُصيب الرسولَ ﷺ منهم أذىً، فيقول الرسولُ ﷺ في ثقةٍ ويقين: « ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما ؟! لا تحزن؛ إن الله معنا »[1]

إنَّه توكُّلُ الواثق، لا تواكلُ القاعد الذي ينتظر أن يأخذ بيده أحدٌ من البشر.

توكُّلُ مَن لا يفرِّط في سَبَبٍ، ولا ينصرفُ عن شَرَفِ الغاية، ولا يُشركُ بعبادة ربِّه أحداً.

لقد جمع الكُفرُ جُموعَه، وحُوصرت مدينةُ رسول الله ﷺ، واستطاعت جموعُ الأحزاب أن تُغري بني قريظة بالغدر، وهو ما ذكر الله في كتابه ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[2]

وما كان ظنُّ المؤمنين إلاَّ يقيناً وثباتاً ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[3]

أما المنافقون فقد أبَتْ ألسنتُهم إلاَّ أن تخضعَ لقلوبهم، وأن تُعبِّرَ عمَّا فيها ﴿ أَشِحَّةً

(١) متفق عليه.
(٢) الأحزاب : ١٠، ١١.
(٣) الأحزاب : ٢٢.

عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١)

ومن بداية الأمر رأيتَهم يلتمسون مخرجاً إلى الفرار والهرب.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

في هذا الموقف المشحُون بالغدر، الذي تجمَّع فيه الكُفْرُ بجميع طوائفه وأحزابِه، وسانَدَهُ النفاقُ بجُبْنِه وخُذلانه، وآوى إليه اليهودُ متآخين معه في شرٍّ وغدر.

في هذا الموقف الذي تُرى المدينةُ فيه في حصارٍ رهيب، يرسل الرسولُ ﷺ إلى بني قريظة – وقد علم بأمرهم، وأنهم بيَّتُوا غدراً بعد عهد – يرسلُ إليهم؛ ليستوثِق من

(١) الأحزاب : من الآية ١٩.

(٢) الأحزاب : ١٢– ١٧.

أمرهم، ويأمر مَن أرسلهم أن يأتوا إليه باليقين من أمرهم، قائلاً لهم: « **انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْ لا ؟ فَإِنْ كَانَ حَقّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلا تَفُتّوا فِي أَعْضَادِ النّاسِ** »

فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ فِيمَا نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ،وَقَالُوا: مَنْ رَسُولُ اللّهِ. لا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمّدٍ وَلا عَقْدَ.

وكان في الوفد الذين أرسله الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ، وَشَاتَمُوهُ - وَكَانَ رَجُلاً فِيهِ حِدّةٌ - فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: دَعْ عَنْك مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنْ الْمُشَاتَمَةِ. ثُمّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَسَلّمُوا عَلَيْهِ، ثُمّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالْقَارّةُ [1] فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: « **اللّهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ** ».[2]

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [3]

ها هي الريحُ تُؤذَن فتُجيبُ، وتُؤمَر فتنطلقُ، وها هم جنود الله - وما يعلم جنود ربك إلا هو - يُرسَلون؛ ليضعوا مع الريح حدًّا لهذا البغي المتسلط.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: حَدّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ مُحَمّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللّهِ، أَرَأَيْتُمْ رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي. قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالَ: وَاَللّهِ لَقَدْ كُنّا

(١) أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارّةِ بِأَصْحَابِ الرّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ١٧٨/٤.
(٣) الطلاق : من الآية ٣.

نَجْهَدُ. قَالَ: فَقَالَ: وَاللّه لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا. قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللّه لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلّى رَسُولُ اللّه ﷺ هُوِيًا مِنْ اللّيْلِ، ثُمّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: « **مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمّ يَرْجِعُ - يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ الرّجْعَةَ - أَسْأَلُ اللّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنّةِ ؟** » فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ؛ مِنْ شِدّةِ الْخَوْفِ، وَشِدّةِ الْجُوعِ، وَشِدّةِ الْبَرْدِ، فَلَمّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللّه ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي؛ فَقَالَ: « **يَا حُذَيْفَةُ، اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَلا تُحْدِثَنّ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنَا** »، قَالَ: فَذَهَبْت فَدَخَلْت فِي الْقَوْمِ، وَالرّيحُ وَجُنُودُ اللّه تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ، لا تُقِرّ لَهُمْ قِدْرًا وَلا نَارًا وَلا بِنَاءً. فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ. قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْت بِيَدِ الرّجُلِ الّذِي كَانَ إلَى جَنْبِي، فَقُلْت: مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ: فُلانُ بْنُ فُلان، ثُمّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّكُمْ وَاَللّه مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ [1] وَالْخُفُّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ [2]، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ شِدّةِ الرّيحِ مَا تَرَوْنَ، مَا تَطْمَئِنّ لَنَا قِدْرٌ، وَلا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنّي مُرْتَحِلٌ. ثُمّ قَامَ إلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلاثٍ، فَوَاَللّهِ مَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إلاّ وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ اللّه ﷺ إلَيّ « أَنْ لا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنِي » لَقَتَلْته بِسَهْمٍ.

قَالَ حُذَيْفَةُ: فَرَجَعْتُ إلَى رَسُولِ اللّه ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي فِي مِرْطٍ [3] لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلُ [4]، فَلَمّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إلَى رِجْلَيْهِ، وَطَرَحَ عَلَيّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمّ رَكَعَ

(١) الكراع : الخيل.

(٢) لم تخلفهم رجوعاً إلى الوفاء، وإنما أخلفتهم لما وقع بينهم من فُرقة وخلاف، وما فعله نعيم بن مسعود من حيلة.

(٣) أي : كساء.

(٤) الْمَرَاجِلُ : ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ الْيَمَنِ.

وَسَجَدَ وَإِنّي لفيه، فَلَمّا سَلَّمَ أَخْبَرْته الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إلَى بِلادِهِمْ.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلَمّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللّه ﷺ انْصَرَفَ عَنْ الْخَنْدَق رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَة، وَالْمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا السّلاحَ، فَلَمّا كَانَتْ الظّهْرُ أَتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللّه ﷺ مُعْتَجِرًا [1] بِعِمَامَةٍ مِنْ إسْتَبْرَق، عَلَى بَغْلَة عَلَيْهَا رِحَالَةٌ، عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاج، فَقَالَ: أَوَقَدْ وَضَعْتَ السّلاحَ يَا رَسُولَ اللّه ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: فَمَا وَضَعَتْ الْمَلائِكَةُ السّلاحَ بَعْدُ، وَمَا رَجَعَتْ الآنَ إلاّ مِنْ طَلَب الْقَوْم، إنّ اللّهَ ﷻ يَأْمُرُك يَا مُحَمّدُ بِالْمَسِيرِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنّي عَامِدٌ إلَيْهِمْ، فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ مُؤَذّنًا فَأَذّنَ في النّاس: مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلا يُصَلّيَنّ الْعَصْرَ إلاّ بِبَنِي قُرَيْظَة.[2]

وانتهى أمر بني قريظة إلى ما ينتهي إليه أمرُ كُلِّ خائن غادر، وأعزَّ الله جندَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [3]

* * *

(١) الاعتجار بالعمامة : أن يلفها على رأسه، ويرد طرفها على وجهه، ولا يعمل شيئا منها تحت ذقنه.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٤/١٩١.

(٣) الأحزاب : ٢٥- ٢٧.

أرأيتَ كيف يكون التوكل على الله، وكيف تكون نتيجته.. فمهما عَظُمَ الخَطْبُ في أعين الناس أيعظُمُ على الله ؟!

إننا نرى الرسول ﷺ وقد أُخبر بما وقع من بني قريظة - في وقت يُحاطُ بالمدينة من كُلِّ جانب - نراه يقول: « **الله أكبر، أبشِروا** »

ألا ترى ما في هذه الكلمة من دَلالة في هذا الموقف، إنها دلالة ردِّ الخطر بما هو أعظمُ، ردُّهُ بالاستعانة بالله الذي لا يُعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فكان ما قد رأيت.

ومع الأسى البالغ يبدو أن المسلمين - في واقعهم المعاصر - قد جاوزوا الحدَّ في بُعدهم عن دينهم، حتى رأينا "ليفى أشكول" بعد لعنة ١٩٦٧م يقف بعد النصر الذي صُنع له؛ ليقول ((الآن قد انتقمنا لبني قريظة))، وقوله هذا أغنى عن التعليق، فهو يُبرهن بقوله عن دوافع المجيء إلى قلب الأمة العربية، واختيارهم أرض فلسطين، وهى دوافع تعود إلى الحقد على الإسلام وأهله.

ومع الأسى البالغ فقد مَكَّنت أمةُ الإسلام من نفسها بفُرقتها وبُعدها عن دينها، وحاول كثيرون أن يرفعوا شعاراتٍ يدعون أُمَّتهم إليها، فكانت النَّكْبةُ على أيديهم، وكان الذُّلُ والهوان، ونطق "أشكول" بكلمته وهو مطمئن أن هذه الأمة قد جهلت تاريخها، فلا بأس أن يكذب، وأن يَشِيد ببني قريظة، وأن يُعلن أنه جاء لينتقم لها.

وا عجباً أن يَشرُفَ إنسانٌ بنسبته إلى الغدر! وأن يُراد لأُمَّتنا - في حاضرها - أن تبرأ من نَسَبِ الوفاء والطُهر.

فلنرجئ الحديث حتى نأتي إلى الواقع المعاصر، ولنعتصم بالعنصر الخامس، أو الصفة الخامسة التي يجب أن يتَّصف بها الداعية وهى: الصبر.

* * *

٥- صبره وقوّة تحمّله

« الصبر » تلك الكلمة المظلومة التي أخذت - في واقعنا المعاصر - دلالةً غير دلالتها، ولا غرابة أن تفقدَ الكلماتُ - عند الانحطاط - معانيها، وأن تبعُد - في عُرْفِ الناس - عن دلالتها.

الصبر كلمةٌ كبيرةٌ، وصفةٌ عظيمةٌ.

كلمةٌ وثّابةٌ، تحفظ الإنسانَ من الخضوعِ للهوى، وتجمع طاقتَه؛ ليتجه إلى غايته دون انشغال بترهات الباطل وسفاهته.

كلمة أبيَّة، تحبس النفسَ على الوقوفِ عند ما تؤمنُ به دون تفريطٍ، وتحملها على قبولِ المشقّةِ دون أن تَهِينَ أو تستكين.

ولكن الكلمة - في عصر الانحطاط - أخذت في الناس طابعَ الانكسار والذُّل، بل طابع السلبية التي تستمرئ الظلمَ وتُبرره؛ فراراً من موت وحُبّاً لحياة..

إن الصبر معنىً لا تحتمله إلا نفوسُ الأعزاء الشرفاء..

إنه خُلُق الأنبياء، جاء التواصي به بعد التواصي بالحق؛ ليكونا معاً جناحي الصعود للمؤمنين، والفرار من خُسر ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [1]

والإنسان لا يستغني عنه في حالٍ من الأحوال؛ فإنه بين أمر يجب امتثاله وتنفيذه، ونهيٍ يجب عليه اجتنابه وتركه، وقَدَرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمةٍ يجب عليه

(١) سورة العصر.

شُكْر المنعم عليها. وإذا كانت هذه الأحوال لا تُفارقه فالصبر لازِمٌ له إلى الممات.

وكُلُّ ما يلقى العبدَ في هذه الدَّار لا يخلو من نوعين: أحدهما يُوافق هُواه ومُراده، والآخر يُخالفه. وهو محتاج إلى الصبر في كُلٍّ منهما.

أما النوع المُوافق لغَرَضه، فكالصحة، والسلامة، والجاه، والمال، وأنواع الملاذ المُباحة، وهو أحوج شيءٍ إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها، ولا يغتَر بها، ولا تحمله على البَطَر والأَشَر، والفرح المذموم الذي لا يحبُّ الله أهلَه.

الثاني: أن لا ينهمك في نَيْلها، ويبالغُ في استقصائها؛ فإنها تنقلبُ إلى أضداده فمَن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضدِّه، وحُرِم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبرَ على أداء حقِّ الله فيها، ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صَرْفها في الحرام، فلا يُمَكِّن نفسَه من كُلِّ ما تريده منها، فإنها تُوقعه في الحرام، فإن احترز - كُلَّ الاحتراز - أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون. قال بعض السلف: « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصِّديقون ».

وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إمَّا أن يرتبط باختيار العبد، كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوّله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه. فها هنا ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي تُوصَف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبدُ محتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية.

أما في الصلاة فَلِمَا في طَبْعها من الكسل وإيثار الراحة، ولاسيَّما إذا اتفق مع

ذلك قسوة القلب، ورَيْن الذنب، والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد العبدُ - مع هذه الأمور وغيرها - أن يفعلها، وإنْ فعلها - مع ذلك - كان متكلِّفاً، غائب القلب، ذاهلاً عنها، طالباً لفِراقها، كالجالس إلى الجيفة.

وأما الزكاة؛ فَلِمَا في طبعها - أي النفس - من الشُّح والبُخل، وكذلك الحج والجهاد؛ للأمرين جميعاً.

ويحتاج العبدُ - ها هنا - إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها، بتصحيح النية، والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسُّمعة، وعقد العزم على تَوْفِيَةِ المأمورية حقَّها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل، فيلازم العبدُ الصبر على دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبرَ على استصحاب ذكر النية، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وألاَّ ينساه في أمره، فليس الشأن في فعْل المأمور، بل الشأن - كُلُّ الشأن - ألاَّ ينسَى الآمر حالَ الإتيان بأمره، بل يكون مستَصحِباً لذِكْره في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله.

فهو محتاج إلى الصبر على تَوْفِيَة العبادة حقَّها، بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسُننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يُشغَل عنه بعبادته، فلا يُعطِّله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يُعطِّله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك وجوه:

أحدها: أن يُصبِّرَ نفسَهُ عن الإتيان بما يُبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [1] فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حِفظها مما يُبطلها.

(١) البقرة : من الآية ٢٦٤.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعُجْب بها، والتكبر والتعظُّم بها، فإنَّ هذا أضرُّ عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السِّر إلى ديوان العلانية؛ فإن العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين الله سبحانه فيُكتَب في ديوان السِّر، فإن تحدَّث به نُقل إلى ديوان العلانية. فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمرُه ظاهر، وأعظمُ ما يُعين على قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقَطْع العوائد، فإن العادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جُندان من جُند الشيطان، فلا يقوى باعث الدِّين على قهرهما.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دَفْعه، كالمصائب التي لا صُنع للعبد فيها، كموت من يَعز عليه، وسرقة ماله، ومرضه ونحو ذلك. وهذا نوعان، أحدهما: ما لا صُنع للعبد الآدمي فيه، والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله، كالسَّب والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدهما: مقام العجز، وهو مقام الجَزَع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلاَّ أقلُّ الناس عقلاً وديناً ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر، إمَّا لله، وإمَّا للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر مُتَّفقٌ على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد البلية نعمة، فيشكر المبتلِي عليها.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَلِ الناس، فلَهُ فيه هذه المقامات، ويُضاف إليها أربعةٌ آخر: (أحدها) مقام العفو والصفح، (والثاني) مقام سلامة القلب من إرادة التَّشفِّي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت، وضيقه بها، (والثالث) مقام شهود القَدَر، وأنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك، فالذي قدَّره عليك وأجراه على يدِ هذا الظالم ليس بظالم، (والمقام الرابع) مقام الإحسان إلى المسيء، ومقابلة إساءته بإحسانك. وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإنْ فاتَ العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخسِّ المقامات وأسفلها.

القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكَّن لم يكن له اختيارٌ ولا حيلة في دَفْعه، كالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حِيلةَ في دَفْعها بعد مباشرةِ أسبابها، كما لا حِيلةَ في دَفْعِ السُّكْر بعد تناول المُسْكِر، فهذا كان فرضُه الصبر عنه في أوَّلِه، فلمَّا فَاتَهُ بقي فَرْضُ الصَّبْرِ عليه في آخره، وأن لا يُطيع داعي هواه ونفسه.

وللشيطان ها هُنَا دَسِيسَةٌ عجيبةٌ، وهي أن يُخيِّلَ إليه أنَّ نَيْلَ بعض ما مُنعَ قد يتعيَّن عليه، أو يُباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة. وقد أجازه كثيرٌ من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوي لا يُزيل الدَّاء، بل يُزيده ويُقوِّيه، وكمْ ممَّن تداوَى بذلك فكان هلاكُ دينه ودُنياه في هذا الدواء، بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ** ﴾ [1]، وقال: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ**

(١) آل عمران : من الآية ١٨٦.

﴿ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1]، فالصبر والتقوى دواء كُلِّ داء من أدواء الدِّين، ولا يستغني أحدُهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يُثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مُفَرِّطاً يتعاطى أسبابَه ؟ وهل يكون مُعاقَباً على ما تولَّدَ منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم، إذا صَبَرَ لله تعالى، ونَدِمَ على ما تعاطاه من السبب المحظور، أُثيب على صبره؛ لأنه جهادٌ لنفسه، وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجرَ مَن أحسن عملاً.

وأما عقوبتُه على ما تولَّدَ منه، فإنه يستحق العقوبة على السببِ وما تولَّدَ منه، كما يُعاقَبُ السَّكران على ما جَنَاهُ في حال سُكْره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السَّكران معذُوراً.

فإن الله تعالى يُعاقبُ على الأسباب المُحَرَّمة وعلى ما تولَّد منها، كما يُثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولَّد منها، ولذا كان مَن دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار مَن اتَّبعه؛ لأن اتِّباعهم له تولَّدَ عن فعله. ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفْلٌ من ذَنب كُلِّ قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال الله: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [3]

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولِّد وليس من فعله، والإنسان يتوب عمَّا يتعلَّق

---

(١) يوسف : من الآية ٩٠.

(٢) النحل : ٢٥.

(٣) العنكبوت : ١٣.

باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحَبْس النفس عن ذلك ؟!

فإن كان المتولد متعلّقا بالغير فتوبتُه مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الدَّاعي إلى البدعة أن يُبيِّن أنَّ ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهُدى في ضده، كما شَرَطَ تعالى في توبة أهل الكتاب - الذين كان ذنبُهم كتمانَ ما أنزل الله من البيِّنات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك - أن يُصلحوا العمل في نفوسهم، ويبيِّنوا للناس ما كانوا يكتمون إيَّاه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [1]. [2]

* * *

أرأيتَ أنَّ الصبرَ لا يُستغنَى عنه في حال من الأحوال، فما بالك بالدعاة الذين ندَبُوا أنفسَهم للجهاد في سبيل الله ؟ إنهم لا يستطيعون أن يقوموا بما أوجبه الله عليهم - وهم دُعَاة إليه - إلا بالصبر.

إنه عَوْنٌ لهم، أيّ عون في المُضيِّ على الصراط المستقيم، ومَن لا صبر له لا عَوَنَ له.

وقد ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز ما يَحْسُن بالداعية أن يقفَ عنده ويتدبَّره، وأن يرى ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه الكرام.

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: « ذكر الله - سُبْحَانَه - الصبرَ في القرآن في

(١) البقرة : ١٥٩، ١٦٠.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : ص ٥٠-٥٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

تسعين موضعاً)).

ونحن نذكرُ الأنواعَ التي سيق فيها الصبر، وهي عِدَّةُ أنواع:

أحدها: الأمْرُ به، كقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [1]، وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [2]

الثاني: النهي عمَّا يُضاده، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [3] وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [4]، وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [5]، وبالجملة فكُلُّ ما نهى عنه فإنه يُضاد الصبر.

الثالث: تعليق الفلاح به، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [6] فعلّق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مُضاعفة أَجْر الصابرين على غيره، كقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [7] قال سليمانُ بنُ القاسم: ((كُلُّ عمل يُعرَف ثوابُه إلاَّ الصبر)) قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [8].

---

(١) النحل : من الآية ١٢٧.
(٢) الطور : من الآية ٤٨.
(٣) الأحقاف : من الآية ٣٥.
(٤) آل عمران : من الآية ١٣٩.
(٥) القلم : ٤٨.
(٦) آل عمران : ٢٠٠.
(٧) القصص : من الآية ٥٤.
(٨) الزمر : من الآية ١٠.

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1]، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين.

السادس: ظفرهم بمعيَّة الله لهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [2]، قال أبو علي الدَّقاق: « فاز الصابرون بعزِّ الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيَّته »

السابع: أنه جَمَعَ للصابرين ثلاثةَ أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [3]، وقال بعض السلف - وقد عُزِّي على مصيبة نالته -: « ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاثَ خصال، كُلُّ خصلة منها خير من الدنيا وما عليها »

الثامن: أن الله جعل الصبر عَوْناً وعُدَّة، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ ﴾ [4] فمَن لا صَبْرَ لَهُ لاَ عَوْنَ له.

التاسع: أنه سُبْحَانَه علَّق النصرَ بالصبر والتقوى، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

---

(١) السجدة : ٢٤.

(٢) البقرة : من الآية ١٥٣.

(٣) البقرة : ١٥٥- ١٥٧.

(٤) البقرة : من الآية ٤٥.

﴿ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [1]، ولهذا قال النبي ﷺ: « واعلم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ » [2]

العاشر: أنه سُبْحَانَه جعل الصبرَ والتقوى جُنَّةً [3] عظيمةً من كيد العدو ومكره، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [4]

الحادي عشر: أنه سُبْحَانَه أخبَرَ أن ملائكته تُسلِّم عليهم في الجنة بصبرهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [5]

الثاني عشر: أنه سُبْحَانَه أباح لهم أن يُعاقبوا على ما عُوقبوا به، ثم أقسم قَسَماً مؤكداً أنَّ صبرَهم خيرٌ لهم، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [6]

الثالث عشر: أنه سُبْحَانَه رَتَّبَ المغفرةَ والأجرَ الكبير على الصبر والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [7]

الرابع عشر: أنه سُبْحَانَه جعل الصبرَ على المصائب من عَزْمِ الأمور،قال تعالى:

---

(١) آل عمران : ١٢٥.

(٢) رواه أحمد.

(٣) أي وقاية.

(٤) آل عمران : من الآية ١٢٠.

(٥) الرعد : من الآية ٢٣، الآية ٢٤.

(٦) النحل : ١٢٦.

(٧) هود : ١١.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)، وقال لقمانُ لابنه وهو يعظه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

الخامس عشر: أنه سُبْحَانَه وَعَدَ المؤمنين بالنصر والظَّفْر - وهى كلمتُه التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحُسنى - وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ ﴾ (٣)

السادس عشر: أنه سُبْحَانَه علَّق محبَّته بالصبر، وجعلها لأهله، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٤)

السابع عشر:أنه سُبْحَانَه أخبر عن خصال الخير أنه لا يُلَقَّاها إلا الصابرون، وذلك في موضعين من كتابه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٥)، وقال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٦)

الثامن عشر: أنه سُبْحَانَه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتَّعظ بها الصبّارُ الشكور، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

---

(١) الشورى : ٤٣.
(٢) لقمان : من الآية١٧.
(٣) الأعراف : من الآية ١٣٧.
(٤) آل عمران : ١٤٦.
(٥) القصص : ٨٠.
(٦) فصلت : ٣٥.

ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [1]، وقال سُبْحَانَه: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [3]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [4]، فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرَّب إنما ينتفع بها أهلُ الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه تعالى أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره، فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [5]، فأطلق عليه « نعْمَ العبد » بكونه وجده صابراً، وهذا يدلُّ على أن مَن لم يصبر إذا ابْتُلِيَ،فإنه بئسَ العبد.

العشرون: أنه سُبْحَانَه حَكَمَ بالخسران - حُكماً عاماً - على كُلِّ مَن لم يؤمن، ولم يكن من أهل الحقِّ والصبر، وهذا يدلُّ على أنه لا رابح سواهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [6]

---

(١) إبراهيم : ٥.
(٢) سبأ : من الآية ١٩.
(٣) لقمان : ٣١.
(٤) الشورى : ٣٢، ٣٣.
(٥) ص : من الآية ٤٤.
(٦) سورة العصر.

ولهذا قال الشافعي - رحمه الله -: « لو فكَّر الناسُ كلُّهم في هذه الآية لَوَسِعتهم » [1] وذلك أن كمال العبد في تكميل قوتي العلم والعمل - وهما الإيمان والعمل الصالح - وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الحادي والعشرون: أنه سُبْحَانَه خصَّ أهلَ الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة، الذين قامت بهم هاتان الخصلتان، ووصَّوا بهما غيرَهم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ ﴾ [2]

الثاني والعشرون: أنه سُبْحَانَه قَرَنَ الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان، فقرنه بالصلاة ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [3]، وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [4]، وجعله قرين التقوى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [5]، وجعله قرين الشكر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [6]، وجعله قرين الحق ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [7]، وجعله قرين الرحمة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ ﴾ [8]، وجعله قرين اليقين ﴿ وَجَعَلْنَا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٧٠٨.
(٢) البلد : ١٧، ١٨.
(٣) البقرة : من الآية ٤٥.
(٤) هود : ١١.
(٥) يوسف : من الآية ٩٠.
(٦) سبأ : من الآية ١٩.
(٧) العصر : من الآية ٣.
(٨) البلد : ١٧.

﴿مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [1]، وجعله قرين الصدق ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [2]

ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً. والله أعلم. [3]

* * *

(١) السجدة : ٢٤.

(٢) الأحزاب : من الآية ٣٥.

(٣) عدة الصابرين : ١/٥٧ – ٦٠.

obeikandl.com

٦- استغناؤه عمّا في يد الناس

ومن أبرز صفات الداعية استغناؤه عمَّا في يد الناس، وابتغاؤه ما في يد الله.. فهو لا يرجو إلا ربَّه، ولا يخافُ إلا ذنبَه.

إنه يسأل الله وحدَه، ويرجوه دون سواه، ويركنُ إليه في جميع شئونه، ويرضى عنه في جميع أحواله، ويشكره على نِعَمه، ويثِقُ فيما عنده، وأنه - وحده - الغنى والناس جميعاً فقراء إليه.

وكذلك كان الأنبياء - وهم صفوةُ الدعاة إلى الله - متجردين، لا يبتغون إلا وجْهَ الله، ولا ينشُدون إلا رضَاه، وبذلك استطاعوا أن يُواجهوا أقوامَهم دون ذِلَّةٍ من حاجة.

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (١)

وإذا أردَّتَ أن تُنصَرَ على أمرٍ فاستغن عنه؛ فإن النفس راغبةٌ، ولكنها تقنع إذا رُدَّت، وحاجاتها الضرورية محدودة، وأيامُها في الحياة معدودة، وأجلها مغيب، فقد يكون الحرص على الشيء حرصاً على لا شيء ! فكَم من طعام هُيِّئ لناس وَطَعِمَهُ غيرُهم، وكَم من دُورٍ شُيِّدت وسَكَنَهَا غيرُ بانيها، والخيرُ - كُلُّ الخير - في النظر إلى العواقب؛ فإن النظر إليها يُحدِّدُ الرغائب، ويؤدبَ التطلع، والنفسُ إنْ تُركت لهواها لم تقنع بشيء، وإن صُرِفَ عنها الهوى عرفت حقيقةَ كُلِّ شيء، فلم تُشغَل بفَانٍ عن باقٍ، و لم تُفتَن بزهرة الحياة.

---

(١) يونس : ٧٢.

والداعيةُ إلى الله قُدوةٌ للناس من حوله، ولا تهبط به بينهم ما يخالف دعوته من أمره، وهذا لا يتكلَّف له؛ فإن الرياء يكشف ما وراءه « وكُلُّ إناءٍ بما فيه ينْضَحُ ».

فالصدق - والصدق وحده - هو لغةُ القلوب، وهو وحده الذي يُخاطَبُ الناسُ به، فيرضى الله عنه.

وليس أسوأ في نظر الناس من إنسان يُكذِّبُ بعضُه بعضاً، يُكذِّبُ إعلانُ ثقته في نفسه حديثَهُ عن اعتزازه بخالقه، ويُكذِّبُ هواه إظهارَ حبِّه للحقِّ، ويكذِّبُ جُبْنُه إظهارَ البطولة والشجاعة.

والدُّعاةُ إلى الله قد أعلنوا بدعوتهم رضاهم عن الله. وهذا الإعلان موطنُ امتحان واختبار يُرى فيه هل هواهم مع الله ؟ أم مع الدنيا ؟ وهل يقصدون بدعوتهم حظوظاً زائلةً لأنفسهم ؟ أم يرجون الباقيات الصالحات؟

إن كانت الأولى فقد سقطوا، ولن يُستجابَ لهم، وإن كانت الثانية - وهى لن تكون إلا بعون من الله - فإنها لا تتَّفق - أبداً - مع تطلعهم إلى ما في أيدي الناس.

* * *

والقرآن الكريم يحدثُنا عن رُسُل الله - صلوات الله عليهم - حديثاً مستفيضاً في هذا الجانب، ففي سورة واحدة - هي سورة الشعراء - تجري على ألسنة خمسة من الرُّسُل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - هذه الكلمة: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [1]

١- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

(١) الشعراء : ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

٢- ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (٢)

٣- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٣)

٤- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (٤)

٥- ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الشعراء: ١٠٥- ١٠٩.

(٢) الشعراء: ١٢٣- ١٢٧.

(٣) الشعراء: ١٤١- ١٤٥.

(٤) الشعراء: ١٦٠- ١٦٤.

(٥) الشعراء: ١٧٦- ١٨٠.

وليس هذا قاصراً على نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشعيبٍ – عليهم السلام – بل تراه خُلُقاً للأنبياء جميعاً، وبه يتميَّزُ الدُّعاةُ الصادقون.

وهل يستجيبُ الناسُ إلا لمُتجرِّدٍ يبتغي وجهَ الله ؟!

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٤)

بل إن الدعاةَ الصادقين يبذلُون كُلَّ ما في أيديهم في سبيل الله، ويُخضعونه لمرضاته، ولا يرغبون بأنفسهم عن طاعته.

وكَمْ رأينا بيتَ رسول الله ﷺ خالياً من طعام وسراج، لا عن فَقْرٍ بل من جُود وإيثار، وما كان ﷺ يدَّخرُ شيئاً لغد، مع أنه ﷺ يقول لغيره: « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ (٥) النَّاسَ » (٦)

---

(١) يس : ٢٠، ٢١.

(٢) الفرقان : ٥٦، ٥٧.

(٣) سبأ : ٤٧.

(٤) الطور : ٤٠.

(٥) أي يسألونهم ليعطوهم.

(٦) متفق عليه.

يقول أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ » (١)

وتقول عائشة - رضي الله عنها -: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ » (٢)

وعنها - رضي الله عنها - قالت: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (٣)

وفي صحيح مسلم عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: « وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ، ثُمَّ الْهِلالِ، ثُمَّ الْهِلالِ، ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ. قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ، فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ، التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ (٤)، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ » (٥)

وروى مسلمٌ عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ ﷺ قال: « لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ (٦) مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ » (٧)

وروى مسلم عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ ﷺ قَالَ: « خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:.... وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) جمع منيحة، وهي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها، ثم يردها إذا انقطع لبنها.

(٥) رواه مسلم.

(٦) الدّقل: ردئ التمر.

(٧) رواه مسلم.

طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا [١] » [٢]

وإذا سألت عمَّا في أيدي الموسرين من هؤلاء الصادقين وجدته خاضعاً لمرضاة الله، ووجدتَ هذه النفوس تعزُّ بشيء غير هذا العَرَض، ولو رأت نفسَها بهذا العَرَض ما انتصرت « لولا انتصارها على نفسها ما انتصرت على عدِّوها، ولولا أنها غلبت بفضلها لم تغلب بقوتها ».

إنها قد حَفِظت عن نبيِّها ﷺ، وأيقنت أنه: « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ [٣] وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » [٤]

وروى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا [٥] وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » [٦]

وروى البخاري عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى [٧] وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ » [٨]

وروى مسلم عن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِي ﷺ قَالَ: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ،

---

(١) أي أصابتها القروح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) العَرَض : ما يُنتَفعُ به من متاع الدنيا.

(٤) متفق عليه.

(٥) الكفاف : الكفاية بلا زيادة ولا نقص.

(٦) رواه مسلم.

(٧) اليد العليا هي المنفقة المُعطية، واليد السفلى هي السائلة.

(٨) رواه البخاري.

فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّه. ثُمَّ قَالَ: أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّه ؟ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّه، ثُمَّ قَالَ: أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّه ؟ قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّه، فَعَلامَ نُبَايِعُكَ ؟ قَالَ: عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِه شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ » (١)

وروى أحمد في مسنده عن ثَوْبَان - مَوْلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا. فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا » (٢)

وروى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ (٣) » (٤)

تلك نفوسٌ وجدت غِنَاهَا، فجاءت أعراضُ الحياة خاضعةً طائعة.. مَرَّت بالأيدي، ولم تستطع أن تتسلَّل إلى القلوب.

نفوسٌ سمعت فتدبَّرت ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

(٣) مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا :أَيْ لِيُكْثِرَ به مَالَهُ، أَوْ بِطَرِيقِ الإِلْحَاحِ وَالْمُبَالَغَة فِي السُّؤَال وقوله : (فَلْيَسْتَقِلْ مِنْهُ) : للتَّوْبِيخِ لا للإِذْنِ وَالتَّخْيِيرِ، والمعنى : أَنَّهُ يُعَاقَب بِالنَّارِ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون عَلَى ظَاهِره وَأَنَّ الَّذِي يَأْخُذهُ يَصِير جَمْرًا يُكْوَى بِه، كَمَا ثَبَتَ فِي مَانِع الزَّكَاة.

(٤) رواه مسلم.

يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

فكان غناها في إيمانها، امتلأت الأيدي أم خَلَتْ، وعزُّها في يقينها، أقبلت الدنيا أم أدبرت.. كانت الدنيا بين أيديهم صغيرة، وصغَّرها في أعينهم تعلُّقُ همتهم بما هو خيرٌ وأبقى.

رأوا مالها ومتاعَها زينة، فلم يجعلوها - فيما بينهم - قيمةً، فكان تفاضلهم بتقوى الله، لا بعَرَضِ الحياة، وتسابقهم على العمل الصالح، لا على زهرة الحياة وزينتها، فظفروا بها خادمةً بين أيديهم، استخدموها و لم تستخدمهم، فخدمتهم و لم تستطع أن تنفذ إلى نفوسهم، ولو نفذت إليها لفرَّقتها، ولو دخلت إلى القلوب لأفسدتها.

ولا يستقيم أمرُ الدعاة إلى الله مع إيثارهم الحياة الدنيا، لا يستقيم أمرهم إلاَّ بأن يخافوا مقامَ ربِّهم، وأن يُخضعوا هواهم لطاعته ورضاه.

ولا حرجَ في حلالٍ طيِّبٍ كُتِبَ لهم، إنما الحَرَجُ أن تراه النفوسُ موطنَ عزِّها، ومجالَ فخرها، ومبلغَ علمها.

إنَّ امتحانها في النِّعَم التي بين أيديها أشقُّ من امتحانها بالمحن تمرُّ عليها ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢)، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣)

ولكنَّ أمر الدعاة - في عصرنا الحاضر - يحتاجُ إلى مزيدٍ من القول؛ لأن الدَّعْوَة

(١) المؤمنون : ٥٥-٦١.

(٢) الأنبياء : من الآية ٣٥.

(٣) الأنعام : ٤٤، ٤٥.

عُدَّت وظيفةً، وللوظيفةُ اعتباراتٌ وأحوالٌ، فيحسُن بنا أن ندرس الأمر على ضوء النظرة الشاملة للواقع المعاصر، وما تبدَّل من صفات، وما جَدَّ من أحوال.

وقُصارى ما نستطيع أن نقوله هنا: أن يكون الدعاةُ على عِفَّةٍ وتحرُّرٍ ويقينٍ تعلُو به همتُهم، وتصغر أعراضُ الحياة في أعيُنهم؛ فإن عوامل الاستدراج لهم لن يصمدوا لها إلاَّ بصِدْق إيمانٍ ويقينٍ، وليكونوا - دائماً - أوثق بما في يد الله مما في أيديهم، وأن يحذروا تبدُّل القِيَم، فيستخفهم تفاضلُ الناس بالأعراض والزينة، فيُصيبهم ما أصاب الناسَ من سُعارِ التكاثر.

وليس معنى هذا أن يقعدوا عن طلب الرزق، أو يُؤثروا حياةَ العَوز والفقر، ولكن معناه:

أن يكون عزُّهم - دائماً - بما في قلوبهم، لا بما في أيديهم..

أن يكون فيهم عثمانُ عند الشِّدة، وأبو بكر في ساعة العُسْرةِ، وابن عوف عند النازلة والفاقة..

أن يكونوا جنداً لله، يرونه ولا يرون سواه..

وأن يكون عُسرُهم ويُسرُهم خاضعاً لله، لا يرون للعُسْر فَرَجَاً إلا من الله، ولا يرون من اليسر إلا شُكراً لنعَمه وابتغاء مرضاة الله..

وبهذا القَدْرُ يتحدَّد موقفُ الإنسان، ويفوز بالنجاح في جميع الأحوال.. يفوز من الشدة بخير ما فيها - وخير ما في الشدة صبرٌ واحتسابٌ - ويفوز من النعمة بما فيها، ولا يبقى من النعمة إلا شكرُها، وما يُقدِّمُ منها لغيره.

وبهذا يصِحُّ إيمان المؤمن، ويكون « أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ

خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ »[1]

* * *

والداعية في حاجة إلى أن يقف عند قصص القرآن؛ ليرى نماذجَ من الصادقين، أنْعَمَ الله عليها، فكانوا – بما أُعطوا – مثلاً يُذكَر، وحديثاً باقياً في سمع الزمن يُتلَى ويُتدبَّر.

أُعْطِيَ (ذو القرنين) من الأسباب ما أُعْطِيَ، فكان منهجُه إخضاع كُلِّ شيء لطاعة ربِّه، بإقامة العدل ومحاربة الظلم.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2]

وعرضوا عليه ما يجدونه من "يأجوج ومأجوج" من فسادٍ، وطلبوا أن يجعل لهم سدًّا يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج.

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى

(١) رواه مسلم.

(٢) الكهف : ٨٧- ٩٣.

خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (١)

إن الله يُمكِّنُ للناس ليبتليهم، فإن وَفُوا كان لهم مع التمكين ذِكْرٌ وجزاء، وإن نكثوا أَذَلَّهم، واستخلَفَ غيرَهم؛ لينظر ماذا يعملون.

﴿ قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

والداعية إلى الله – وهو غنيٌّ بما في نفسه من إيمانٍ ويقينٍ – يأبى أن يُساوَمَ على حقٍّ، أو يُداهِنَ أو يُرائي.

وأنت ترى الهدهدَ في مُلك سليمان يعودُ – وقد توعَّده سليمانُ – أبيًّا رافعَ الرأس ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤)

النبي القائد يتفقَّد رعيتَه، ويتعرَّف أحوالَها.. يرى الحاضرَ، ويسألُ عن الغائب، ورعيته مُبصرةٌ واعيةٌ تعرف واجبَها، وتنطق بالحق.

---

(١) الكهف : ٩٤،٩٥.

(٢) الأعراف : ١٢٩.

(٣) يونس : ١٣، ١٤.

(٤) النمل : ٢٠، ٢١.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٦ ﴾ (١)

الله أكبر، أيُّ عملٍ هذا ؟! وأيُّ ثقةٍ، بل أي ولاءٍ لله وطاعة له.

إنه الهدهد الذي يعلو بإيمانه، فيُذْكَرُ - حيثُ يُذْكَرُ - صفوةُ الرجال، ويُدلي بمَنطقه - أمام قائده الذي توعَّده - في ثقة ويقين، ويستمع إليه القائدُ فلا يرُدُّ كلامَه، أو يستخفُّ به، بل يقول: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ﴾ (٢)

إنَّ القضيةَ خطيرةٌ يترتب عليها نتائج وآثار، فلا بُدَّ من التثبت قبل التحرُّك لهذا الأمر الخطير ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨ ﴾ (٣)

وما أسرع ما يؤدِّي الهدهدُ مهمته، ويصلُ إلى غايته.. والقرآن في حديثه عنه يطوي المسافةَ طيًّا، ويأخذك - في لمحة بَصَر - إلى حيث ذهب الكتابُ، فلا يكاد الأمر يصدر إلى الهدهد ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ حتى ترى الكتابَ هناك،

---

(١) النمل : ٢٢-٢٦.

(٢) النمل : من الآية ٢٧.

(٣) النمل : ٢٨.

والهدهدَ ينظرُ ويرقُب.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

أي شيء يشغل نفوسَ المؤمنين إذا أُعطوا ؟

لا شيء غير الدَّعْوَةِ إلى الله.

إن أسبابَ التمكين لم تُجعَل للبغي والفساد، إنما جُعلت لإصلاح أحوال العباد.

ترى سليمانَ يُسخِّر كُلَّ شيء في مُلكه لمرضات ربِّه.. إنه داعٍ إلى الله بما أُعطَى، فلا يُساوَمُ على المؤنة، ولا يتزحزحُ عن غايته.

أرادت ملكةُ سبأ - وقد وصل إليها الكتاب - أن تتعرف على حال مَن أرسلَ الكتاب.. هل هو طالبُ دنيا فتعطيه وتأمن شرَّه ؟ أم له شأن غير هذا الشأن ؟

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

هنا منطق الامتحان والاختبار، هنا تأتي المساومةُ، ويأتي الإغراء، وهو أسلوب

(١) النمل : ٢٩-٣١.

(٢) النمل : ٣٢-٣٥.

يتكرَّر مع كُلِّ الدعاة العاملين إلى الله.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

إنهم يفرحون بهديتهم، ولكن سليمانَ لا يُسرُّه إلا مرضاة ربِّه.

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

إنها القوة تُوضَعُ حيث يحبُّ الله ويرضى، لا بغيّ ولا تسلّط، بل إيمانٌ وعمل صالح.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣)

وينتهي أمرُها إلى خضوعٍ وإسلامٍ بعد أن سمعت دعوةَ الدَّاعي إلى الله، ورأتْ ما رأت من آياتٍ وآيات، واختبرت مَن دعاها، فعرفت أنها أمام نفوسٍ لها شأن.. تملك من مُلك الله ما لم يُعْطِ لأحدٍ، ولكنها تلتمس الشُّكْرَ لله في إخضاع كُلِّ شيء لطاعته.

إنها ليست مفتونةً بما أُعطيت، أو غافلةً عمَّا ينتظرها من يوم حساب وساعة جزاء.

---

(١) النمل : ٣٦.

(٢) النمل : ٣٧.

(٣) النمل : ٣٨-٤٠.

إنها تعيش يومَها لغَدِها، فلا تُهمل اليومَ، ولا تنسى الغَدَ.. وهل يُهمَلُ اليومُ وفيه زادٌ وإعدادٌ ؟! وهل يُنسَى الغدُ وهو آتٍ لا ريب فيه ؟!

إن الغدَ إذا نُسيَ وقع الضلالُ، وظهرَ الفسادُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

فلما وجدت ملكةُ سبأ نفسَها أمام دُعَاة صادقين، دانت لخالقها، وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢)

والداعيةُ إلى الله بين السراء والضراء، واليُسر والعُسْر يتضَّحُ حالُه، ويُعرف أمرُه، وهو رابحٌ في يُسره وعُسره، وسرَّائه وضرَّائه، ومَن عَمي عن ذلك فلن يقودَ غيرَه، ولن يُرشدَ سواه.

ولم يُر الفقير - قط - بين صحابة رسول الله ﷺ دون الغني، ولم يُرَ الغني - بما أعطى - أرفع من الفقير، ولكن رُئِيَ الجميعُ دُعَاة إلى الله، وكان كلاهما يغبِطُ الآخرَ على عملٍ صالح، لا على عَرَضٍ زائل..

والأمة التي يكون أمرُها كذلك يطيبُ كُلُّ فردٍ فيها بأيِّ عمل يُسنَدُ إليه؛ لأنه يعرف أن مكانتَه في إخلاصه لربِّه، ولا يستطيع أحدٌ أن يحولَ بينه وبين ذلك.

ولن تسعد الإنسانيةُ إلا بدُعاة من ورائهم أُمَّةٌ يكون أكرم مَن فيها أبرُّها وأتقاها، وعلى الدعاة أن يحرصوا على إيجاد هذه الأمة، والمحافظة عليها إن وُجدت ﴿ وَلْتَكُن

(١) ص : من الآية ٢٦.

(٢) النمل : من الآية ٤٤.

مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١)

* * *

تلك مُجملُ الصِّفاتِ التي يجبُ أن تتوفَّرَ في الداعية، نوجزها في:الإيمان، والثبات، والحكمة، والصبر، والتوكل، والاستغناء عمَّا في يد الناس، وابتغاء ما عند الله.

وأنت ترى أن هذه الصفات يشدُّ بعضُها بعضاً، ويدلُّ بعضُها على بعض، ويمثِّلُ الإيمان فيها أمرَ الروح، إن وُجِدَ وجدت به جميعُ الصفات، وإن فُقِدَ فُقِدت، فكما لا يكون للإنسان حركةٌ بلا رُوح، فكذلك لا يمكن أن تتحقَّق صفاتُ الخيرِ في الإنسان بلا إيمان.

ولسنا في حاجة أن نُدلِّلَ على هذه الحقيقة؛ فواقع الحياة - وما فيها من تجارب - يُغني عن ذلك، ولا يُخْدَعَنَّ أحدٌ بما يرى من بعض الصفات فيمن يريدون الحياة الدنيا؛ فإنها صفات ما لَها من قرار.. إن أنت سَبَرْتَ غَورَها ألفيتها سَراباً خادعاً، يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجدتها تراباً فوق صفوان، لا عُمقَ له ولا ثبات، تذرُوه الرياحُ، أو يكتسحه الوابلُ، ويبقى ما تحته صلْداً لا يُنبت زرعًا، ولا يُعطِي ظِلاً ولا ثمراً.

وكُلُّ صفات الناس تكشفها المِحنُ، وتبلُوها التجاربُ، ولا شيءَ كالشدائد التي تكشفُ عن زور النفوس وبُهتانها، أو صِدق القلوب وإيمانها.

وصفاتُ الناس في امتحان دائم بالسَّراء والضرَّاء ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى

---

(١) آل عمران : ١٠٤.

جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1]

ولا ثبات في امتحانٍ بغير إيمان، ولا نتائج تُرجَى لخير الناس بغير يقين.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [2]

إن صفات الداعية ظلٌّ يأوي إليه الناسُ، وعطاءٌ دائمٌ ينشدونه وهم يُواجهون شئون الحياة، فيُبتَلون ولا يُقتَلعُون « كَالْخَامَةِ [3] مِنْ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً » [4]، وربما زادها الرياح ثباتاً وامتداداً.

ومن سُنَّةِ الله أن يعلو الإيمان، وأن ينتصرَ جُندُه.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

---

(١) الأنفال : ٣٧.

(٢) إبراهيم : ٢٤-٢٧.

(٣) الخامة : الشجرة الغضَّة الرَّطبة.

(٤) رواه البخاري.

ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

لن يُخذَل الإنسانُ إلاّ من عمله، ولن تُضار أُمة الإسلام إلا من داخلها.

إن حصنَها في قلبها، وعزَّها فيما تعتزمه وتقصده، فإن كانت لإيمانها بربِّها عزَّت، وإن خرجت عنه ذلَّتْ، وسقطت في يد عدوِّها، وكانت له الغَلَبة حتى تفيء إلى أمر الله.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (٤)

إن صفات الداعية يجمعها « علم وعمل » علمٌ يرتبط بفطرة القرآن، ويمتدُّ به، فيؤتِي ثمارَه عملاً صالحاً في كُلِّ مجال، والمعرفة تتسع وترتفع بسمو الغاية وشرف الباعث، وهى إن لم تُحكَم بضوابط القرآن، وتهتدي بهديه تعثَّرت خُطاها، ودُمِّرت نتائجها، وكان الإنسان - وهى مَن قامت به وله - أشقى شيء بها، وهى لكي تُصان وتُؤتِي ثمارَها لا بُدَّ أن يحملها عملٌ هادف ذو غاية رحيمة بالإنسان حيث كان، ولن يكون العمل كذلك إلا إذا استنارَ بالقرآن الكريم، فهدى إلى التي هي أقوم.

---

(١) آل عمران : ١٣٧- ١٤٠.

(٢) غافر : ٥١.

(٣) الروم : ٤٧.

(٤) آل عمران : ١٣٩.

وللدعاة في تجربة الحياة إمامٌ وقُدوةٌ، ولهم في رسول الله ﷺ خير أُسوة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

ومع أن الله - جلَّ وعلا - قد حفظَ كتابَه، و لم يَدَع حفظَه لأحد من خلقه، فإنَّ لكُلِّ جيلٍ مع هذا الكتاب عملاً، والكتاب قائم يدلّ الناس على الطريق، ويشهد على العباد، وهو حُجَّةٌ لهم أو عليهم.

إن الدين - بحقائقه - ثابتٌ ثباتَ سُنَن الفطرة في الوجود ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) والمتجدد هو قضايا الناس الناشئة عن ضروب حياتهم واختلاف شئونهم وأحوالهم، وتلك تخضع للأصول الثابتة، وتتَّصل بها كما يتَّصل الفرعُ بأصله، فيكتسب أسبابَ الحياة والنماء، ويؤتي ثماره بإذن ربِّه، وكُلُّ فرع ينفصل عن هذه الأصول الثابتة ولا يستند إليها، لا بُدَّ أن تبطل فائدته، وتنعدم منفعته.

وكُلَّما كان المسلمون مع الله مخلصين له الدين، كُلَّما سهل عليهم - بتوفيق من الله - إخضاع قضاياهم المتجددة - في أي زمان ومكان - لحُكم دينهم.

والذين يرون صعوبةَ إخضاع هذه القضايا المتجددة المتنوعة - والتي يرونها قد خطت شوطاً بعيداً في النمو والتطور - يفوتهم أن يعلموا أن الصعوبة منشؤها التفريط

(١) الأحزاب : ٢١.
(٢) الروم : ٣٠.

في قيام الأصول في حياة المسلمين، وأعني بها العقيدة وما يرتبط بها من فرائض بُنِيَ الإسلامُ عليها.

وإخضاع القضايا المتجددة عمل من أعمال الدعاة يستوجبُ فقهاً وبصيرة، كما يستلزمُ معرفةً واسعةً بقضايا العصر وشئونه.

والدين - بحقائقه - لَيِّنٌ قريب، بعيدٌ في عُلو مكانه بحيث لا ينطوي في جزئية زمنية محددة ينتهي بانتهائها، قريب في فطرة الناس بلا عُسْرٍ ولا حَرَجٍ، ولا يُبعدهم عنه إلا تعسف مقيت أو هوى متسلِّط.

إنه كالشمس في الكون، تُخالط كُلَّ شيء، ولا يمكن أن تُحبَس في شيء..

وقضايا الناس أشبه ما تكون بدُورهم التي يسكنونها، ويعنون أن تكون فيها نوافذ لشمس وهواء، والشمس ما قصَّرت - وهي مسخرة بأمر ربِّها - في مَدِّ شعاعها، وإعلان ضوئها، وهي تمتدُّ إلى القصر والكوخ، والقريب والبعيد، بلا محاباة أو تفْرِقة.

والذين يتصوَّرون الدِّين شيئاً غير هذه الفطرة الهادية يظلمونه ويسيئون فَهْمَه.

إن الدِّين يريد أن تنعم الدور بأسباب الطُهر والعافية، فلا تُحجَب - بفعل الهوى - عن شمسٍ وهواء، أو تُغلَق فتُحرَم من أسباب الحياة، وتكون مأوى لهوام الأرض، خَرِبَة لا أُنس فيها ولا أمان.

إن الدين هو الفطرة، والفطرة سمحة سخيَّة، لا عُسْرَ فيها ولا تعقيد.

إن أهواء الناس هي التي تُفسِدُ، والدين يحاربُ الهوى؛ حتى لا يبعد الناس عن فطرتهم السَّمحة، ويتنكرون لأسباب حياتهم.

إنَّ قضَايا الناس ثمارٌ لا يُنتَفَعُ بها إلاَّ في شمس الدِّينِ وهوائه، ولا تنبُت في غير

تربته، ولا تحيا بغير مائه.

وكل مَن يُبعد قضايا الناس عن الدين متسلطٌ جائرٌ، لا يحبُّ أن يطيب لهم ثمرٌ، أو ينمو لهم نَبْتٌ أو شجر.. إنه يريد أن يقطعهم عن أسباب الحياة من شمس وهواء وتربة صالحة وماء، واهماً أنه رابح، مع أنه أول الخاسرين.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (١)

* * *

وعملُ الدُّعاة أكبر من أن يكون بالكلمة وحدَها، إنهم مطالبون أن يُقيموا - في حياة أُمتهم - حضارةً مُعبِّرةً عن دينهم، حضارةً يُرى فيها الإنسانُ، يُغرَى بها القريبُ والبعيدُ، ويأوي إليها العدوُّ والصديق، لذا كان من عملهم الملائمة - دائماً - بين التخصصات المتنوعة؛ لتدرك أن عملَها نابعٌ من الدين وليس بعيداً عنه، فإن أخطر ما رُمِيَ به عالمُنا الإسلامي هو تحقيق التباين والصراع بين فروع المعرفة، وإيقاع الفُرقة بينها، وإبداء أن لا علاقة لها بالدين، مما تأباه فطرةُ الإسلام وتُنكره؛ فإن فطرة الإسلام تجعل عملَ الإنسان ونشاطَه كُلَّه ديناً ما دام مرتبطاً بآداب الإيمان ودافع التضحية.

ولكن الذين يُخطِّطون لتدمير العالم الإسلامي يأبون إلا أن يجعلوا للدين رجالاً يَسِمُونهم بسِمات العُزْلَة، ويُوقعون بينهم وبين غيرهم بإضفاء ألقاب (التقدُّم) على هؤلاء، (والرجعية والتخلُّف) على أولئك، والمقصود هو (الدين)، لا تكريم هؤلاء، ولا إهانة أولئك.

وترى ذلك منهم في جانب الإسلام وحده؛ لِعَزْلِه عن الحياة، وغاب عنهم أن

(١) آل عمران : ١٣٧.

الإسلام شمسٌ ترتفع على جميع محاولاتهم، ولن تنطفئ بأهوائهم، ولئن خُدِعَ جيلٌ ستصحو من بعده أجيالٌ، وسترى الإنسانيةُ من التجاربَ المريرة ما يجعلها يوماً تفيء وتعود، فتعلن للذين أضلوها، أو انحرفوا بمسيرتها أنه لا خلاص لها إلاَّ في ظل الإسلام.

والدعاة المخلصون - وهم يَعُونَ هذه الحقيقة - عليهم ألا يَهِنُوا أو يضعُفوا، أو يتسرَّب إلى نفوسهم يأسُ أولئك؛ فإن عليهم أن يُحسِنوا المقدمات، وأن يَثِقُوا في النتائج، وأنهم رابحون في جميع الأحوال، فإن أَذِنَ الله في لقائه، فقد رَبِحُوا رضاه، وإن أرسل الله نفوسَهم إلى أجل، كان لهم شَرَفُ المزيد من ذِكرٍ وتقى وعملٍ، وهم على أعمالهم وصدقهم يُجازُون، لا على هداية الناس يُحاسَبُون.

عليهم إن يُفوِّتوا على العدو خُطته في إيجاد صراع بين الدِّين والمعرفة؛ فإن لكُلِّ فرع وتخصص موضعه في قيام الحضارة التي ينشدها دينُهم، إن الجسد الواحد تتنوَّعُ أجهزته وتتفاوت، لكنها تسعى - كلها - في تحقيق غاية واحدة، وإن الكون تتعدَّد آياتُه، وتتجدَّد غايتُه، وهذه الآيات المتنوعة والأجهزة المتعددة تتعاونُ وتتآزرُ ويُواخي بعضُها بعضاً، ويشدُّ بعضُها بعضاً، وتدل - كُلُّها - على خالق واحد، وتدعو إلى عبادةِ إله واحد.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

ولا يمكنُ أن يُحقِّقَ الداعيةُ شيئاً لدعوته ما لم يكن أغْيَرَ عليها من كُلِّ ما يحرص الناسُ عليه، فهو لا يَودُّ لها أن تُهزَم في حياة الناس، أو تُعزَلَ عن شئونهم، وهذه الغيرة

(١) الأنعام : ١٠٢.

الفطرية الصادقة تحمله على أن يكون عاملاً في تحقيق الروابط بين الناس محققاً للبرِّ بينهم؛ فإن الفُرقة أخطر شيء يُهدِّد حاضرَ الأمة ومستقبلَها.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

والداعية لن يصنع شيئاً من ذلك إلاَّ إذا كان قَصْدُه فيه مرضات ربِّه، ولن يجتمع ذلك - أبداً - مع طَلَبِ المنفعة والشُّهرة.

روى الترمذى عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ » (٢)

إنَّ حِرْصَ الإنسان على المال والجاه يعُوقُ خُطى الإنسان، ويشغله عن العمل للحقِّ، أو التجرّد له، والنفس وراء ما تحرص عليه.. وقد أذلَّ الحِرصُ أعناقَ الرجال، فلا بُدَّ من ترويض النفس وتدريبها على أن تتخلَّصَ من كُلِّ شاغل يشغلها عن إخلاص النيَّة والدَّعْوَة إلى الله عز وجل.

والداعيةُ - بصفاته - يستطيع أن يستعينَ - بعد ذلك - بالوسائل الفطرية من سُنَنِ الله وآياته، فيُحسِن توجيه النظر إليها بالصورة الملائمة لمن يخاطبه، وكذلك فَعَلَ رُسُلُ الله وأولوا العَزْمِ منهم، قد خاطبوا الناس بآيات الله في الآفاق وفى أنفسهم.

* * *

(١) آل عمران : ١٠٥.

(٢) رواه الترمذي.

ثانياً: الكونُ بآياته داعٍ إلى اللّه وهادٍ إليه

يُخاطَبُ الإنسانُ بآيات الله المُنــزَّلةِ على نبيِّه ﷺ، كما يُخاطَبُ بآياتِ الله في الأنفس والآفاق.

وفي كلِّ شيء لله آيةٌ تدُلُّ عليه، وتُنبئُ عن تفرُّده ووحدانيته، وتُذكِّر الناسَ أن يعبدوه وحده لا شريك له.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (١)

﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ

(١) البينة : من الآية ٥.

يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

وآياتُ الله - كما نرى - قد جعلها الله سبباً ترتبطُ به حياةُ الإنسان، ويمتدُّ سَعيُه؛ فهي تتحدَّثُ إليه دائماً، وتُذكِّرهُ في جميعِ الأحوال. إنها خُلقَت له، فَحَرِيٌّ به أن يهتدي بها، وأن يستمعَ إليها، وألاَّ يُصرَفَ بها عن توحيد الله وطاعته.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

ولكنَّ دعوةَ الأنبياء إلى الله، ودَلالتها عليه لا يَعِيَها، ولا يتذكَّرُ بها إلاَّ مَن كان له قلبٌ، أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد.

فإن آياتِ الله في الكون فيها متاعٌ ودَلالةٌ.

والمتاع يشتركُ فيه الإنسانُ مع الأنعام ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾

(١) النمل : ٥٩- ٦٤.

(٢) غافر : ٦١-٦٥.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

والدلالةُ ينفردُ بها الإنسانُ، بما منحه الله من سمع، وبصر، وفؤاد ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٢)

والناسُ أمام آيات الله فريقان:

فريقٌ فُتنَ بالمتاع، فَشُغلَ به، واطمأنَ إليه، ولم يلتفت لدَلالتـــه، رضُوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها، وغفلوا عمَّا سواها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (٣)

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٤)

والأنعامُ لا ضَيْرَ عليها؛ لأنها لم تُؤهَّلْ للتبصرة والذِّكرى، ولكن هؤلاء قد عطَّلوا ما وهبهم الله من حواس، فلم يستبصروا أو يعتبروا، فكانوا كالأنعام، بل هم أضلّ.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) عبس : ٢٤- ٣٢.
(٢) النحل : ٧٨.
(٣) محمد : من الآية ١٢.
(٤) الفرقان : ٤٤.

﴿ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

وفريقٌ استبصَرَ بنِعْمَةِ ربِّه، وأدرك دَلالتَها، وعَرف غايتَهـا، أدرك أن النِّعَم فيضٌ من الله، وفضلٌ منه، فاستعان به، وتوكَّل عليه، وأخلص القَصْدَ له، ولم يُشـرك بعبادة ربِّه أحداً.

فهو يذكرُ الله بِنِعَمِه، ويشكُره ولا يكفُره، ويعرف أنَّ خيرَ ما في هذه النِّعَم أن يعي دَلالتها، وأن يستبصِرَ بها، وأن يعتبرَ بما فيها.

ولذا رأينا القرآنَ الكريمَ يَخُصُّ بالآيات هذا الفريقَ وحدَه دون سواه؛ لأن غيرَه لم يعتبر بها، ولم ينتفع بدلالتها، وإن تمتع وأكل كما تأكلُ الأنعام.

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

* * *

ولكن هل تُرك الإنسانُ لآيات الكون وحدَها تُخاطبه وتحدِّثـه، وتُـذكّره

(١) الأعراف : ١٧٩.
(٢) الجاثية : ٣- ٥.
(٣) ق : ٦- ٨.

وتُبصِّره ؟ أم اقتضت عنايةُ الله أن تَنْزِلَ آياتُ الوحي على رُسُلِهِ؛ لتتآخى مع آيات الكون في مخاطبة الإنسان ؟

إن الله – جلَّت قدرتُه – لم يترك الناسَ لخطاب الكون وحده – مع ما فيه من آيات ذاتِ تأثيرٍ بالغ – بل أرسل رُسُله بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْط.

ونرى رُسُلَ الله – صلوات الله عليهم – يلفتون نَظَرَ الناس إلى آياتِ الله في الكون؛ كسببٍ لتقرير الإيمان، وتثبيت اليقين، وهو سببٌ قائمٌ مع الإنسان حيثما كان.

فآية الله في الزَّرْع والزيتون والنخيل والأعناب، وفي كل الثمرات، آياته في الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، آياته في ما ذرأ في الأرض، وفيما أنزل من السماء، ترتبط بها حياةُ الناس، ويقوم عليها معاشُهم؛ إذ لا غنى لهم عن ماء وهواء، وأرض وسماء، وزروع وثمر، وشمسٍ وقمر.

وهنا نجد جمالَ الفطرة واتِّساقَها وهي تُقدِّمُ أسبابَ المعرفة فيما ينشده الإنسانُ من مُتعةٍ ومنفعةٍ، فتجعل أسبابَ الإيمان غير منفصلة عن شئون الإنسان، إنها ليست بعيدا عن مأكله ومشربه، وليله ونهاره، وما يقع أمام بصره، وما هو قائم في نفسه.. إنه يراها فيما سخر الله له، وفيما أسبغ عليه من نِعَمٍ ظاهرة وباطنة، إنه يجد في نِعَمِ ربِّه أسبابَ معرفته وخشيته.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا

﴿ تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

* * *

هذه الوسيلة الفطرية في الدَّعْوَةِ إلى الله هي أقوى الوسائل وأبقاها، والناس مهما اختلفت درجاتُ معرفتهم - باختلاف الزمان والمكان - يجدون في النظر إلى الكون آيةً ودلالةً، وتبصرةً وتذكرة.

ولذا نرى رُسُلَ الله - صلوات الله عليهم - قد تآخت كلمات الوحي على ألسنتهم مع آيات الكون في مخاطبة الإنسان، والإنسان - وهو يتلقَّى عنهم - يرى صِدْقَ الكلمات على صفحات الكون، وفي أعماق النفس، والكون يُردِّد صِدْقَ الكلمات في خشوع أخَّاذ تقشعرُ منه جلودٌ، وتلين قلوبٌ، فتبقى وسائل الدَّعْوَة إلى الله ما بقيت السموات والأرض.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣)

نرى نوحاً عليه السلام يدعو قومَه ليلاً ونهاراً، جهاراً وإسراراً، يدعوهم إلى عبادة الله

(١) إبراهيم : ٣٢- ٣٤.
(٢) الروم : ٣٠.
(٣) الفرقان : ٦١، ٦٢.

وتقواه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [1]

ويتخذ من آيات الكون شاهداً لدعوته وسبيلاً لمعرفة الله وخشيته ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [2]

يخاطبُ نوحٌ عليه السلام قومَه بهذه الآيات التي نراها على صفحة الكون، وتراها الأجيالُ من بعدنا.. فالماءُ، والمالُ، والبنُون، والجنات، والأنهار، والسماوات وما فيهن من شمس وقمر، والأرض وما فيها وما عليها، من خَلْقِ الإنسان فيها، ومَشيه في مناكبها، وإعادته فيها.. كُلُّ ذلك قائمٌ بين أيدينا، ماثِلٌ أمام أعيُننا، تراه الأجيال فتجد فيه التبصرة والذكرى.

ولكن آياتِ الكون - التي تحمل من الدلالة للإنسان ما تحمل - يمكن أن تكون - بأمر الله - في مصلحته ومنفعته، ويمكن أن تتحوَّل - عندما تُؤْمَرُ - إلى وسائلَ عذابٍ ودمار.

فالأرض التي يُذَكِّرُ الإنسان بنعمة استقرارها وتسخير ما بها، يمكن أن تُخسَف

(١) نوح : ٣.
(٢) نوح : ١٠-٢٠.

بأهلها، وأن تبتلع ما فوقها، وأمرُها - في الحالَيْن - بيد الله وحدَه.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

والماء الذي يُذكِّرُ الإنسانُ به، وأن الله - بفضله - جعله عذْباً فُراتاً، ولو شاء جعله ملحاً أُجاجاً.. الماء الذي جعل الله منه كُلَّ شيء حيٍّ، يمكن أن يغُور في باطن الأرض، فلا تصل إليه وسائلُ الإنسان ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)، ويمكن أن يُصرَف عن الناس، وأن يُحبَس فيهلك الحرثُ والنسل.

وإذا كان الحقُّ - جلَّ وعلا - قد جعل من الماء كُلَّ شيء حيٍّ، فإننا - معشرَ البشر - لا نحتمله إلاَّ بمقدار، ولو زاد لطغى ودمَّرَ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣)

ولا يملك أمرَ تسخيره وتقديره إلا الرحمنُ الرحيمُ؛ فهو وحده الذي يُصيبُ به من يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

(١) الملك : ١٦.
(٢) الملك : ٣٠.
(٣) المؤمنون : ١٨.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

هذا الماء العذب النافع المفيد يمكن أن يتحوَّل بأمر الله إلى أداة بَطْش وتدمير للظالمين.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

أرايتَ كيف يكون الماء نافعاً مفيداً ؟! وكيف يدمِّرُ ما عَمَّرَ بأمر ربِّه ؟!

ترى الماءَ هنا مسخَّراً للنجاة، ومسخَّراً للهلاك.

ولن ينفع الهالكين أن يعتصموا برؤوس الجبال، ولو كان المُعتصِمُ ابن نبي ورسول، ولن يضير الناجين أن تجرى بهم السفينة في موج كالجبال - فباسم الله مجراها ومرساها - إنها تجري سالمة آمنة حتى تستوي على الجُوديِّ، بعد أن قُضِيَ الأمر، وأُمرت الأرض أن تبتلع ماءها، وأن تُقلع السماء بإذن ربِّها.

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣)

ويظل الماء - في جميع الأحوال - آيةً من آيات الله، وهو يسوقه إلى بلد ميت

---

(١) النور : ٤٣، ٤٤.

(٢) القمر : ١٠- ١٤.

(٣) هود : ٤٤.

فيُحيي به الأرض بعد موتها، وهو الذي يُرسل الرياح بُشرى بين يدي رحمته.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

وعندما يأمره فيكون طوفاناً غامراً، ينجو به الناجون، ويهلك به الهالكون ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

إنه - في جميع الأحوال - داع إلى الله بلسان الحال لَمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وكُلُّ نعمة من الله يمكن أن تكون - بشُكرها - للإنسان نعمةً، وأن تتحول - بكُفرها - على الإنسان نِقمةً، وما أكثر ما تجد عذاب الناس بالنعمة التي أُهمل شُكرها.. قد يقع ذلك في الدنيا، وهو واقع - لا محالة - في الآخرة.

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) الفرقان : ٤٨-٥٠.

(٢) الحاقة : ١١، ١٢.

(٣) الجاثية : ٢٢.

ونرى إبراهيمَ عليه السلام - وقد آتاه الله الحُجَّةَ على قومه - يتَّخذ من آيات الله في الكون سبيلاً لإقناعهم وطلب هدايتهم، وصرفهم عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله وتقواه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (١)

إن اليقين قد قام في نفس إبراهيم أوَّلاً، كما قام الإيمانُ في نفوس الرُّسُل جميعاً - عن معرفة ومشاهدة - قبل أن يُطالبوا الناس بالإيمان.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (٢)

فهو يدعو قومه إلى ما آمن به، واطمأن قلبُه إليه ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣)

ولما اجترأ على المحاجَّة في الله كافرٌ أبطره المُلْكُ، دَحَضَ إبراهيمُ عليه السلام حُجَّته بآيةٍ من آيات الله في الكون.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ

(١) الأنعام : ٧٥.
(٢) البقرة : ٢٨٥.
(٣) الأنبياء : ٥٦.

إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (١)

وانظر إليه وهو يحاور أباه وقومَه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢)

انظر كيف يُحدِّدُ موقفَه من الباطل، بعد أن أقام الدليلَ على بُطلانه من أفواه المتعلّقين به ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فلا سمع، ولا نفع، ولا ضر.. وما عبدوهم لأن فيهم شيئاً من ذلك، بل هي المحاكاة لفعل الآباء ولو كانوا في ضلال مبين.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يُعلن عدواتَه للباطل بعد أن أثبت لقومه بُطلانَه، ويُظهر ولاءَه للحقِّ ويدعو إليه، لا بمنطق التقليد والمحاكاة، بل بسُلطان الحُجَّة والدليل.. وكم من

(١) البقرة : ٢٥٨.

(٢) الشعراء : ٧٠- ٧٧.

دليل تُبصره في آيات الله التي أشار إليها في الخَلْق والهداية، والرزق والعطاء، والصحة والمرض، والإماتة والإحياء.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

وما أجمل أن ترى ضميرَ الفعل ﴿ هُوَ ﴾ في المقام الذي يُتوهَّمُ فيه أن أحداً غير الله يمكنُ أن يصنعَ شيئاً في أمر الهداية والرزق والشفاء.. إن ضميرَ الفَصْل هُنا يفيدُ أن الله وحده هو الذي يملكُ ذلك، فلا يصحُّ أن تتوجَّه النفوسُ لأحدٍ سواه.

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

وقد يفعل كثيرٌ من الناس - وهم يلتمسون أرزاقَهم، أو ينشدون مَخْرجاً من ضيقهم - أن يمدون أسبابهم إلى غير الله، فتُقَطِّع بهم الأسباب ! والناس - قديماً وحديثاً - يتعلَّقون بمَن يرونه ذا تأثيرٍ في شئونهم، فيتقرَّبون إليه، ويُعلنون خضوعَهم له.

فلا بُدَّ لمَن يريد أن يُجرِّدَ نفوسَهم لعبادة الله وطاعته أن يُوقفهم على حقيقة

(١) الشعراء : ٧٧ - ٨٢.
(٢) العنكبوت : ١٦ - ١٧.

المؤثرات - في جميع شئونهم وأحوالهم - حتى تسلم العقيدةُ التي بعث الله الرُّسُلَ جميعاً من أجلها.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

* * *

والحديثُ عن آيات الله في الكون على ألسنة الرُّسُل مُحدَّدٌ هادِفٌ، فيه تبصـــرةٌ وتذْكرةٌ.

أولاً: ببيان أنها مخلوقات لله، خاضعة له، مُسبِّحَة بحمده. فتسخيرها وتأثيرها بأمره، ولا ينبغي لها أن تحيدَ عمَّا أُمرت به.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

ثانياً: ببيان أن الخضوعَ واجبٌ، ليس لَهَا بل لخالقها. إذ لا يصحُّ أن يُسوَّى بين مخلوق وخالـــق.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنبياء : ٢٥.
(٢) الحج : ٦٥.
(٣) النحل : ١٧.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

فالعبادةُ إنما تكونُ لله الذي خلق كُلَّ شيء، وبيده كُلُّ شيء.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢)

ثالثاً: بيان أن جميعَ العوارض التي تُرى في الناس – من صحة ومرض، وغنى وفقر، وضحك وبكاء، وحياة وموت – مرجعها إلى الله وحده.

وفي صحف إبراهيم وموسى – عليهما السلام – ممَّا جاء في القرآن الكريم

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٣)

وتأمل أيضاً ضمير الفعل ﴿ هُوَ ﴾ في هذه المواضع؛ لتدرك ما يفيده من قَصْرِ هذه الأمور على الله وحده، فلا يملكها أحدٌ سواه، وقد جاء الضميرُ فيما يُتوهَّمُ أن للمخلوق مدخلاً فيه – من الإضحاك والإبكاء، أو الإماتة والإحياء – ليدفع هذا التوهم، وليؤكد أن هذه الأمور – كغيرها – مرجعها إلى الله وحده.

---

(١) فصلت : ٣٧.

(٢) الأعراف : ٥٤.

(٣) النجم : ٤٣- ٤٩.

آيات الله تُرى في النفس والكون دالةً عليه، وداعيةً إليه، تأتي على ألسنة الرُّسُـــل في مجال الهداية إلى الله والإخلاص له؛ لتتم الخشية التي تستقيم بها الأعمال وينضبط السلوك ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

وواجب أن يُتَّخذَ بيان الرُّسُل أساساً في البحث والنظر في الكون؛ حتى لا يُفتَن الناسُ بالنتائج، وينسون جانبَ العِبْرة والدلالة؛ وحتى يحقِّقَ النظرُ غايته من الاعتـــراف بالخالق، والبرِّ بالمخلوق.

* * *

إن آيات الله في الكون قد تُليت على ألسنة الرُّسُل في وحي يُـــوحَى؛ لـــتطهير النفوس بعبادة الله وحده.. رأينا ذلك على لسان نوح وإبراهيم، ونرى موســـى عليه السلام وقد أرسله الله إلى فرعون وقومه.

﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣)

من أجل تبصرة النفس وتذكرها، من أجل تزكيتها وتطهيرها، من أجل هدايتها وخشيتها تُساق الآيات.

---

(١) النازعات : ١٩.

(٢) النازعات : ١٦-١٩.

(٣) طه : ٤٢- ٤٤.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1]

بلَّغ موسى وهارون – عليهما السلام – ما أُمرا به، ولكن فرعونَ – مع ما رأى من الآيات – كذَّب وأَبى، وبَدَتْ معارضتُه من أول الأمر في مضمون سؤاله، بعد أن بلَّغاه رسالةَ ربِّه ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾؟ فلم يضف الرَّبَّ إلى نفسه مع أنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ولكنه أَصرَّ مُستكبراً، فجاء سؤالُه مُبدياً عن حقيقته ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؟

ولكن موسى يُجيب إجابةً يرُدُّ بها إنكارَه، ويقرِّر الحقَّ، ويستدلَّ عليه بالآيات البيِّنة التي لا يجحدها إلا كُلُّ ختَّار كفُور ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهنا نرى فرعونَ يحاول أن يصرفَ موسى عن الاستدلال بهذه الأدلة الفطرية التي تؤدِّى إلى إبطال دعواه، وإزهاق كَذِبِه، ومن أن الله وحده هو الذي يستحقُّ

(١) طه : ٤٩- ٥٦.

العبادةَ دون سواه، فيعمد إلى سؤاله عن القرون الأولى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ؟

ولكن موسى عليه السلام يُصرُّ على المُضي في كشف أمره، وإبطال باطله، بإثبات الربوبية لله ربِّ العالمين، الذي له كُلُّ شيء، وأحاط بكُلِّ شيء علماً، ليُعلم أنه استحقَّ العبادة وحده لا شريك له ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

ولا يكتفي بهذا، بل يمضي في تعريف الإله الحقِّ بآياته الدَّالة عليه ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

إنها المجابهةُ الصريحة الواضحة بالآيات النَّيِّرَة السَّاطعة التي لا يغفل عنها إلا من أفسدوا عقولهم، وعطَّلوا حواسهم ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

لقد بلَّغ موسى رسالةَ ربِّه، ووضع الحقيقةَ كاملةً ناصعةً أمام عدوِّ الله، ولقد حاول فرعونُ أن يصرفه عن إثبات هذه الحقيقة؛ حتى لا تبطل دعواه، وينكشف كذبه أمام من استخَّفهم فأطاعوه.

(١) الأعراف : ١٧٩.

حاول ذلك بضروب مختلفة تظهر لك - بجلاء - في الحوار الذي جاء في سورة الشعراء، وموسى عليه السلام يمضي في حُجَّتــه في ثبات وفطنة، واستقامة وعفاف ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

إنه يسأل منكراً أيّ شيء ربّ العالمين ؟ وقــد قال له موسى وهارون من قبل ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)، وهو يُنكر أن يكون للعالمين ربٌّ سواه، حسبما يُنبئ عنه قولُه: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)، وقوله:﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (٤)

يقول موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (٥)

ويخاف فرعونُ أن يؤثِّر ذلك في قلوب قومه، وأن يُذعنوا لموسى ودعوته، فيُبدي تعجباً كَذُوباً لَمَنْ حوله عندما سمع جوابَ موسى ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (٦)، وكأنه يقول لهم: استمعوا وتعجبوا من موسى الذي يذكُر ربًّا سواي !!

وهنا نرى موسى عليه السلام ماضياً في دعوته، يحط من ادعائه الربوبية، ويضعه - وغيرَه - في مرتبة المربوبية ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٧)

---

(١) الشعراء : ٢٣.
(٢) الشعراء : من الآية ١٦.
(٣) النازعات : من الآية٢٤.
(٤) القصص : من الآية ٣٨.
(٥) الشعراء : ٢٤.
(٦) الشعراء : ٢٥.
(٧) الشعراء : ٢٦.

عندها يشتَاطُ فرعونُ غضباً، ويلجأ إلى أسلوب العاجز السَّفيه، مُخاطباً قومَهُ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

ولكن موسى لا يلتفت إلى جهله وسَفَهه، بل يمضي ثابتاً في إبداء حُجَّته وتبليغ دعوته ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

وترى في إجابة موسى - في كُلِّ مرَّةٍ - ما يُناسبُ المقامَ، فمع التدرج في الدليل - من التعميم إلى التخصيص - نراه يلوِّح لهم بأن ما رمَيْتموني به من الجنون أنتم أحقُّ به؛ فلو كنتم من أهل العقل لعلمتم أن الأمر كما قلتُ، ولكن تلويحَه أو تصريحه لا يأتي مجرَّداً عن الدليل، بل يحقِّق - أولاً - قضيته بأَبْيَنِ الآيات وأظهرِها من شروق الشمس وغروبها، بعد بيان ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما، وإذ اكتملت أسباب المعرفة واليقين واضحة - بحيث لا تشتبه على مَن له عقل - كان المنكر بمعزل من دائرة العقل، وكان كمَن لا عقل له.

وعندما سمع فرعون ما سمع، وظهر عجزُه، وبطلت دعواه أمام قومه، لجأ إلى أسلوب الطغاه الذين لا يُجابهون الحُجَّة بالحُجَّة، ويَرُدُّون الدليلَ بالدليل ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣)

إنه أسلوبُ أعداء الحق حيث كانوا، فقومُ إبراهيم - من قبل - يُجابهُونَ حُجَّته بقولهم: ﴿ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٤)، وقوم نوح من قبل

(١) الشعراء : ٢٧.
(٢) الشعراء : ٢٨.
(٣) الشعراء : ٢٩.
(٤) الصافات : من الآية ٩٧.

يقولون له ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (١)

وما أسرع ما يمتدُّ التهديدُ والوعيد والبطش والتعذيب إلى من آمن مع موسى، وإلى أهلهم وذَويهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

ولما أُلْقِيَ السحرةُ ساجدين، وأعلنوا إيمانَهم بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون - اعترافاً برسالتهما، وإيماناً بدعوتهما - توعدهم فرعون قائلاً: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ (٣)

فأجابوه بلسان الإيمان قائلين: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤)

وما أسرع ما تمَّ التآمرُ على قَتْل موسى نفسه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الشعراء : من الآية ١١٦.

(٢) غافر : ٢٥.

(٣) طه : ٧١.

(٤) الشعراء : ٥٠، ٥١.

(٥) غافر : ٢٦.

لم تبرح الحُجَّةُ منطق موسى عليه السلام أبداً، حتى في لحظات الكيد والتأمر عليه، فيستعيذ بالله من كُلِّ متكبِّر، ويُحدِّدَ علَّةَ التكبر التي تنتهي إليها جميعُ أسباب الكبر والبغي والتسلط ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

إن المؤمن - دائماً - صاحبُ حُجَّةٍ بيِّنَة، وانظر إلى مؤمنِ آل فرعون وهو يُنكر على قومه التآمُرَ على موسى وقَتْله؛ لترى منطقه وحُجَّته.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

ولكن الباطل - حيث كان - غَشُومٌ، مستبدٌ ظالمٌ، ثَمِلٌ في السِّلْم، بطري، لا تُردعه إلا أسلحةُ الحقِّ في أيدي المؤمنين، ولا يُبدِّد ظُلماته إلا ظهور الإيمان وعودة اليقين.

* * *

لقد رأينا موسى عليه السلام وقد بلَّغ رسالةَ ربِّه، وخاطب فرعونَ وقومَه بآيات الله البيِّنات، ورأينا كيف قُوبلت دعوتُه كما قُوبلتْ دعوةُ الرسول ﷺ من قبله، ورأينا الاستدلالَ بآيات الله في الدَّعْوَة إليه، وامتدَّ بنا الحديثُ في دعوة موسى إلى موقف فرعون وجُحودِه وبَغيِه وفسادِه، وهو موقفٌ قُوبِلَ بأخذ المكذِّبين والانتقامِ منهم، كما

(١) غافر : ٢٧.

(٢) غافر : ٢٨.

أُخذَ المكذبون من قبل؛ تحقيقاً للحق وإزهاقاً للباطل.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (٢)

* * *

وجاءت الرسالةُ الخاتمة فرأينا الحديثَ عن الكون - كداعٍ إلى الله وهادٍ إليه - يتسع ويمتدُّ، حتى لتكاد - وأنت تقرأ القرآن الكريم - ترى نفسَك في رحلةٍ ربانيةٍ وسياحة إيمانية لا ينقضي عجب المتأمل فيها !

لقد ازداد دَور الكون عُمقاً في الدَّعْوَة إلى الله منذ الرسالة الخاتمة، وتآخت فطرةُ الدين مع فطرة الكون، ودخل الإنسانُ - بأمر الدين - هذه الساحة الواسعة متأملاً باحثاً متدبراً، فتصاعدت نتائجُ العلم منذ نُودي بالنبي الأُمِّي ﴿ ٱقْرَأْ ﴾.

جاء عصرُ الرسالةِ العالميةِ، فجاءت معجزتُهَا كتابٌ ﴿ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ

(١) العنكبوت : ٤٠.

(٢) آل عمران : ١٣٧-١٣٩.

﴿ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

فاتسقت المعجزة مع الرسالة، وعبَّرت عن خصائصها، رسالة عالمية تمتدُّ مع الزمان والمكان، فجاءت المعجزةُ - كذلك - مُمتدَّة لا تنقطع، محفوظةً بحِفظ مَن لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن المعجزات - من قبلُ - لا يتأثرُ بها إلا مَن رآها، أو عاش في عصرها، ولم يضمن لرسالات الأنبياء من قبل أن تُذكَرَ على حقيقتها، وأن يعرفَ الناسُ معجزاتها، إلا القرآن الكريم، الذي آمن الناسُ به، فآمنوا برسالات الأنبياء جميعاً، وصدَّقوا بمعجزاتهم « فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ » (٢)

بهذا الكتاب تحدَّدَ السَّمتُ الكامل للرسالات، كما تحدَّدت أصولُ الدعوة ووسائلها، وكان مما عرفناه في وسائل الدعوة إلى الله: أن آيات الله - في السماوات والأرض - اتخذها رُسُلُ الله طريقَ هدايةٍ وسُبل تبصرة، من نوح إلى إبراهيم، إلى موسى، وعيسى ابن مريم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومبشراً برسالة محمد ﷺ.

وجرى الاستشهاد بآيات الكون على ألسنةِ الرسل كدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وهو الأصل الذي قامت عليه دعوات الرسل جميعاً.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (٣)

ورأينا - مع الزمن الممتد - بعضَ آيات الله في الآفاق، وكلما امتد الزمنُ زاد

(١) فصلت : من الآية ٤١، الآية ٤٢.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) الشورى : من الآية ١٣.

دَورُ الكونِ كوسيلةٍ فطريةٍ في الدعوة إلى الله تعالى.

وتتجلَّى عظمةُ هذا الدين في كل عصر بوسائله؛ لأن الكون مُعجزٌ في بساطته وعُمقه، فللناس - مع اختلاف وسائلهم - مع الكون لقاءٌ، وتتجلَّى لهم - بمقدار وسائلهم فيه - آيات وآيات، ولكنهم - مع الزمن - يختلفون، فمن متدبِّرٍ خاشعِ القلب، ومن لاهٍ غافلٍ، ينشد لذة عاجلة، ولا يزيد.

ويتجلَّى هذا الدين بعُمق آياته في عصرنا هذا - وهو ما يُسمَّى عصر العلم - لما أُتيح لهذا العصر - بوسائل البحث - أن يرى من دِقَّةِ الصُّنْع، وعظمةِ التدبير ما تخشع له العقول.

فيَا لَها من عظمةٍ عندما نرى معجزةَ الدعوةِ العالمية في هذا الكتاب، ونرى هذا الكتاب يمضي بنا في رحلةٍ كونيةٍ نرى فيها خَلْق الله، فنؤمن به، ونعرفه فنخشاه، ونخشاه فتتوفَّر بيننا أسبابُ السلام والأمن، فنحقق ما نادى به ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]

والتعبير في الآية الكريمة بلفظ ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ على الجمع، بدلاً من لفظ (الإنسان) على المفرد، أصرح وأوضح في الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فرداً وجنساً، قبائل وشعوباً، أفراداً وجماعات.. فلو كان التعبير (فطرة الله التي فطر الإنسان عليها) لكان هناك محلّ للتساؤل عن المقصود بـ (الإنسان)، أهو آدم عليه السلام ؟ أم نسله ؟ أي: هل أداة التعريف في (الإنسان) للعهد أم للجنس ؟ وهل الإسلام دين الفرد أو دين الجماعة ؟ أما التعبير في الآية بلفظ الجمع فقد مَنَعَ هذا التساؤل، وأوصَدَ

(١) الروم : ٣٠.

دونه البابَ؛ إذ قد أفاد أن الناس - على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم - يجدون تمام تحقيق فطرتهم في دين الله، دين الإسلام.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾[1]

إن القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ خاتم الرسل يمضي بنا في رحلة واسعة في أعماق الكون، حتى وهو يُشبِّه أعمالَ الناس وأحوالهم يختار لنا التشبيه من صُورٍ حيَّةٍ أمام أعيُننا.

انظر إليه وهو يتحدث عن أعمال الكافرين التي يُظنُّ أنها تنفعهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ ﴾[2]

وعندما يتحدَّثُ عن أعمالهم الخبيثة التي ليس فيها شائبة خير، ماذا يقول؟

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠ ﴾[3]

وعندما يتحدَّثُ عن الدنيا وزوالها، وسرعة انقضائها، يختار لها تشبيهاً نراه

(١) الفرقان : ١، ٢.
(٢) النور : ٣٩.
(٣) النور : ٤٠.

صُورةً حيَّةً متحركةً أمام أعيُننا.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

أما عندما يمضي بك في الكون لتعرف ربَّك، فإنه الإمتاعُ للقلب والعقل، وتعال بنا نمضي معه في رحلة يسيرة، ثم نرى بماذا نعود.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢)

ماذا رأيتَ في رحلتنا القرآنية ؟ هل يمكننا أن نُحدِّدَ أبعادَ وعُمْق ما رأينا ؟ أو

---

(١) يونس : ٢٤.

(٢) الأنعام : ٩٥ - ٩٩.

أن نحيط علماً بدقائق الصُّنْع في كُلِّ ما رأينا ؟

لا وربِّي، دون ذلك علومٌ وعلومٌ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

رحلةٌ قرآنيةٌ رأينا فيها الإحياء والإماتة، نشهد أثرهما، ولا نعرف سِرَّهما، نرى أثرهما في كثيرٍ مما حولنا، في دورات متتابعة ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ (٢)

والحديثُ عَن آيات الله في الآفاق والأنفس تجده في كتاب الله ﷻ يمتدُّ في أبعاد السماوات والأرض، ويطوفُ بين المشرق والمغرب..

يَتَحَدَّثُ عَن السحاب المسخَّر بين السماء والأرض. وإنزال الماء من السماء بقَدَر، وإخراج النبات، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب..

يَتَحَدَّثُ عَن رَفْعِ السماوات بلا عَمَد، وتسخير الشمس والقمر إلى أجل مسمى.

يَتَحَدَّثُ عَن الجبال وألوانها، ومصيرها، وعن الناس والدواب والأنعام..

يَتَحَدَّثُ عَن ظُلمات البرِّ والبحر، وإرسال الرياح بشراً بين يدي رحمته..

يَتَحَدَّثُ عَن بداية الخَلق وإعادته، وامتداد الرزق من السماء والأرض بفضل الله ورحمته.

يَتَحَدَّثُ عَن تسخير البحر، وما يحمل على ظهره من الجوار المنشآت، وما فيه من لحم طري، ومن حِليةٍ ومتاع..

---

(١) الإسراء : من الآية ٨٥.

(٢) الأنعام : من الآية ٩٥.

يَتَحَدَّثُ عَن بداية خَلْق الإنسان حديثاً مُفصَّلاً يقفُ العلمُ أمامه خاشعاً متدبراً، و لم تكن وسائله - عند نزول القرآن - تستطيعُ أن تُبصِرَ ما يُقدَّرُ في ظُلمات الأرحام، والإنسان يتدرج في خَلْقه من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظم يُكسَى لحماً.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [1]

ويُحدِّدُ الرسولُ ﷺ هذه المراحل باليوم تحديداً تقصُر عنه علوم عصره وزمانه !!

ففي الحديث المتفق عليه، عن عَبْد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - قَالَ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّه أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ... الحديث » [2]

وتُقدِّمُ الحقيقةُ في آيات القرآن وبيان السنة المطهرة في بساطة مُعجِزة تنأى عن التعقيد، تسعُ الناسَ جميعاً معرفة وعلماً، وإيماناً ويقيناً.

وإعجاز القرآن في بساطته وهو يخاطبُ الناسَ بخطابٍ واحدٍ، يُخاطبهم بالحقائق في لفظٍ يَسَع عامَّتهم وخاصتهم، دون حاجةٍ ما إلى التمييز بينهم، الخاصةُ يرون أنفسهم أمام أعلا كلامٍ وأغلاه، بمنطق العلم والنظر والتدبر، والعامة يرون أنفسهم

(١) المؤمنون : ١٢- ١٤.

(٢) متفق عليه.

أمام أيسر كلام وأغناه، وهو يخاطبهم بما تحتمله عقولهم.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) الزمر : ٢٣

obeikandl.com

ثالثاً: سُنَنُ الله في خَلْقه

إنَّ لله تعالى في خَلْقِه سُنناً لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّلُ.

والأنبياء - وهُم دُعَاة إلى الله - يُبَصِّرون الناسَ بهذه السُّنن؛ ليكونوا على علمٍ بنتائج أعمالهم، وعلى بصيرةٍ بعاقبة مَن كانوا قبلهم، مِمَّن كذَّب بآيات الله وصَدَفَ عنها؛ لتكون لهم عِبرة، وليُحسنوا اتِّباع ما جاءهم به الأنبياءُ.

ولا عُذر لأحدٍ بعد بيانٍ، ولا حُجَّةَ له بعد إرسالِ الرسول، وإنزال الكتاب.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١)

إنَّ سُنَنَ الله - التي قد خلَتْ في الأوَّلينَ - قد بُيِّنت للناس وسِيقت لهم في آيات تُذَكِّرُ وتُبصِّرُ، وتُنْذرُ مَن اتَّبع سُبُلَ الباطل، وركَنَ إلى الظالمين، وكذَّب بالحق، وضلَّ عن سـواء السبيل.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

(١) الأنعام: ١٥٥- ١٥٧.

﴿ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١)

ودعوةُ الرسلِ الكرام لا تُقَابَلُ إلا بالصِّدقِ واليقين، ومَن كذَّب الرسلَ حَقَّ عليه وعيدُ الله، وهلكَ مع الهالكين، وتلك سُنَّةُ الله في الأوَّلين وسُنَّته في الآخرين.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

وما من أمرٍ من شئون الخَلق إلاَّ وفيه إرشادٌ من الخالق تستقيمُ به الفطرةُ ولا تميل، ويُهدَى به الناسُ إلى صراطٍ مستقيم. والناس مُطالبون أن يُقيموا وجوههم للدِّين القيِّم، وأن يُخلصوا دينهم لله من قبل أن يأتي يومٌ لا مَردَّ له من الله.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣)

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

---

(١) آل عمران : ١٣٧، ١٣٨

(٢) فاطر : ٤٢، ٤٣

(٣) الروم :٤٢- ٤٥

﴿ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

هذه الآيات البيِّنات تُتلَى على الناس، ويرى الناسُ دَلالتها في مصائر الأُمم وعاقبة الأمور، يرَوْنَ تأويلَها في نتائج الأعمال ومداولة الأيام، بلا مُجاملة أو مُحاباة

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

وقد جعل الله لكُلِّ شيءٍ أَجَلاً، فلا تُقبلُ توبةُ قومٍ وبأسُ الله يأتيهم، ولا ينفعُ إيمانُ ناسٍ والموتُ يقعُ بهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣)

* * *

إنَّ سُنَنَ الله في خَلْقِه من وسائل الدعوة إليه. والدعوةُ إلى الله تعالى بهذه السُّنَنِ دعوةٌ إلى الاستقامة، بأخذ الأسباب المُحقِّقَة لها، والبُعْدِ عمَّا يُنافيها، أو يصرف عنها.

فالذين يَرَوْنَ سُنَنَ الله في الظالمين يجتنبون الظُّلمَ؛ حتى لا يُصيبهم ما أصابهم - أو هكذا يجب أن يكونوا - فإن أَبَوْا إلا الظلم وقعت بهم العِبرةُ، وكانوا عِظةً لغيرهم.

---

(١) لقمان : ٢٢- ٢٤.

(٢) محمد : ١٠.

(٣) الأنعام : ١٥٨.

وكَمْ في القرآن الكريم من آيات تتحدَّثُ عن مصائر الظالمين، وتُحذِّرُ من الظلم والركون إلى أهله ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (١)

ومن قبل هذه الآية - من سورة هود - ترى مصائر أهل القُرَى ممَّن كذَّبوا الرسلَ، وفي غاية أمرهم - جميعاً - تسمع قول الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢)

سُنَّةٌ لا تتخلَّفُ ولا تتبدَّلُ، أن « يُؤخَذَ الظالمُ بظُلمه »، وأن « يحيقَ المكرُ السيءُ بأهله ».

وكم من ناسٍ غفلوا عن هذه السُّنن، فنقضُوا العهود، وخانوا الآمانات، واستُدرِجوا من حيث لا يعلمون - حين فتح الله عليهم أبوابَ كل شيء - فظنوا أن الخيرات قد أسرعت إليهم، وأنهم - بما أُعطوا - مُكرمون، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا قُطِعَ دابرُهم، ومضت سُنَّةُ الله فيهم كما تمضي في غيرهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ

(١) هود : ١١٣.

(٢) هود : ١٠٠ - ١٠٢.

﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

وكَمْ من ناسٍ أعلنوا - قبل أن تصلَ النعمةُ إليهم - أنهم سيكونون بها أوفياء أتقياء، يُخضِعون كل شيء لطاعة ربِّهم، فلمَّا قامت الحُجَّةُ عليهم، وسِيقت النعمةُ إليهم، فَرِحوا بما هُم فيه، وظلموا أنفسهم، فمضت فيهم سُنَّةُ الله كما مضت في الأولين.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

* * *

إن العلم بسُنن الله في خَلقه من أعظم الدوافع لطُهر النفوس، واستقامة السلوك، بل من أثرها تحقيق نهضةٍ شاملةٍ تقومُ على العلم بمدلوله الواسع، بل بمفهومه الساطع.

العلم بحقيقة الحياة وغايتها..

---

(١) الأنعام : ٤٤، ٤٥.

(٢) فاطر : ٤٢ إلى آخر السورة.

العلم الذي يُحقّقُ معرفةَ الخالق، والبرِّ بالمخلوق.

إن معرفة السنن الإلهية - في تقدير الأشياء وتدبيرها - يفتحُ بابَ البحث والنظر والتدبُّر.

وعندما تُعرَف خصائص الأشياء، ويقفُ الإنسانُ فيها على دِقّة الصُّنْع، وعظمةِ التقدير، يُفتَحُ القلب لأسبابِ الإيمان واليقين.

والكون كله تدبّره سُنَنُ الله، وتبدو فيه حكمتُه، فما من شيء توجِّه نظرَك إليه إلاّ وتراه يمضي وَفْقَ سُنَنٍ إلهيةٍ لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٣)

هذا الاتساق المُعجِزُ، والانسجامُ المُحْكَمُ، والتقديرُ القائمُ في كل شيء، بلا اختلاف أو تفاوت ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (٤)، هذا كله مجالٌ واسعٌ للداعية يُقيمُ منه أدلَّتَه النابضة بالحياة، والناس يرون صِدق ما يقول في واقع محسوس مشاهَد، وتَقَدُّمُ العلم يزيد الأمرَ قوةً ورسوخاً، ويدعو إلى الإيمان بأدلة

(١) يس : ٤٠.
(٢) القمر : ٤٩.
(٣) طه : ٥٠.
(٤) الملك : من الآية ٣.

تفصيلية تُرى في كل شيء.

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ الوَاحِدُ

* * *

والآيات الكونية لها مكانةٌ خاصَّةٌ في الدعوةِ إلى الله في هذا العصر، عصر العلوم الكونية التي كشف الإنسانُ بها ما كشف من أسرارِ الفطرة، فطرة الكون، فبلغ من القوَّةِ المادية ما بلغ، وإن لم يرع في استثمارها واستغلالها ما شرع الله له.

والقوة إذا انطلقت من قيود الشرع الإلهي انصبَّت مكارهُها وويلاتُها على الإنسان نفسه، كما رأينا في الحربين العالميتين اللَّتين كانت أُخراهما شراً من أُولاهما أضعافاً مضاعفة، والتي لم يخرج العالَمُ منها إلى سِلْمٍ، ولكن إلى هُدنة استمرت رُبْعَ قرن، زادت فيها القُوى التي أطلقها العلم زيادةً مُخيفةً؛ ليقف العالم بها اليوم على حافة الهاوية.(١)

وعندما ندعو إلى معرفة السنن الإلهية في الكون إنما نرجوها لخير الإنسان، ولا خيرَ للإنسان إذا جحد الناسُ - وهم يرون آيات الله أمام أعينهم - حقَّ مَن دبَّرَ وقدَّرَ، وأعطى كُلَّ شيءٍ خلقَهُ ثم هدى، وحقُّه تعالى أن يُعبدَ، ولا يُشرك به شيئاً.

وهنا المجال الحي للداعية، مجال تنبعث فيه النفسُ بفكرٍ وعاطفة، بحال فيه إشراق ونور، وفيه عِبر وعظات، وفيه معرفة ساطعة منتصرة بسلطان الحُجَّة والدليل.

ومن سُنن الله في الكون إلى سُنن الله في النفس والمجتمع، إلى آيات الله المتحدثة عن ذلك، كله في إجمال أو تفصيل تزخر نفسُ الداعية فيه بِمَددٍ لا ينقطع.

يقرأ آيةً من آيات الله مسطورةً في كتابه، ويُبصرها قائمةً في نفسه وفي الكون من حوله.

---

(١) الإسلام في عصر العلم : ص ٢٤٥.

ترتفعُ النفسُ بما قرأت إلى آفاق، وتشاهد في الآفاق آيات يزدادُ بها الحقُّ رسوخاً في النفس، وترتفع رايتُه في حياة الناس، فيخسأ ظالمٌ، ويُنصفُ مظلوم « ولا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة، وتتجاوب كلماتُها وكلماته، وإن كانت كلماتها وقائع وسُنناً، وكلماته عبارات وإشارات »[1]

ذلك بيان للحقِّ ودعوة إليه، والحق مطلب فطري قامت به السماوات والأرض، وهو الثابت المستقر الذي لا يتغيَّرُ، والنافع الذي يمكثُ في الأرض، وغيره زَبَدٌ يذهبُ جفاءً.

والحقُّ تدعو إليه سُنَنٌ لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّلُ، ويدعو إليه كتابٌ محفوظٌ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله هو الحق، وقوله الحق، وخَلَقَ السماوات والأرضَ بالحق، وأنزل الكتابَ بالحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2]

وهذا الاتساق في التعبير عن الحق في كلمات، والتعبير عنه في آيات الله القائمة في الآفاق والأنفس، حَرِيٌّ أن يُحقِّقَ في الإنسان رُشدَه، فلا يحكم – لنفسه، ولا لغيره – إلا بالحق.

والحق – كما ترى – مرجِعه واحدٌ في كل شيء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾[3]

(١) الإسلام في عصر العلم : ص ٢٢٢.
(٢) فصلت : من الآية ٥٣.
(٣) الأنعام : ٧٣.

فهل ينتفع بما خلق الله في السماوات والأرض، وما خلق الله ذلك إلا بالحق ؟

ويُرفَض قولُه فيما شرع لعباده، وقوله الحق ؟

ما رأينا أحداً من الجاحدين نَعِمَ بشيء من غير نِعم الله التي خلق لعباده، وكل شيء مسخر بأمره، جارٍ بتقديره وعلمه.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٢)

أرأيت ما تؤديه سُنَن الله في الدعوة إليه ؟ وما تحققه في النفس من خشية ويقين ؟

* * *

(١) فاطر : ١٣.

(٢) المؤمنون : ٨٥ - ٩٢ .

وإذا كان الحديث عن الكون وآياته حديثاً عن السُنَن العامة، وتلك قد بدت من قبل، فإن لبيان السُنَنِ الخاصة في حياة الناس وأحوالهم أثرٌ بالغ في سُلوكهم وأعمالهم، بل في دعوتهم إلى الله وإنابتهم إليه.

وذاك ما نريدُ بيانه هنا..

فمن سُنَن الله أن جعل بركات السماوات والأرض مَنُوطة بإيمان الناس وتقواهم، والبركةُ ليست كماً في أيدي الناس تزخرُ به الجيوبُ، وتُفتنُ به النفوسُ، فذاك قد يتحول - في لحظة - إلى دمارٍ وخراب، حين يقترن بالبغي والتسلط. وإنما البركة أمْنٌ في يُسرٍ، وقناعةٍ في عُسْر، ينعم الناسُ فيهما بالإيثار والحب، فيكثر القليل في أيديهم، ويعُمُّ الخير، ويزدادُ العطاء والنَّماء.. ولن يكون ذلك إلا بإيمان وتقوى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [1]

ومن سُنَن الله أن النِّعَمَ تزدادُ بالشكر، وتنفرُ بالجحود والكفر.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [2]، ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [3]

يقول الإمام علي ﷺ: « إذا وصَلَتْ إليكم أطرافُ النِّعَمِ فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر »

---

(١) الأعراف : ٩٦.

(٢) إبراهيم : ٧.

(٣) النمل: من الآية ٤٠.

والشكر ليس مجرد كلمة يُرددها الإنسان، وإنما هو إخضاع نِعم الله لطاعة الله، حتى لا يرى الإنسان لنفسه فيها إلاَّ ما يراه الله.

وبمقدار معرفة الإنسان لنِعَم الله يكـــون شعورُه بالشكـــر.. ونِعمُ الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[1]

وشُكرُ المؤمن لربِّه لا يتوقَّفُ أبداً؛ لأنه على أيِّ حالٍ كان فهو في نعمة تستوجِبُ شُكراً.

وكل نعمة أنعم الله بها تحملُ للناس تبصرةً وتذكرةً تدعو إلى الشكر، وتُعين عليه بما تحمله من دلائل الفضل والرحمة.

والناس إنْ هُم أخضعوها لطاعةِ ربِّهم، وسخَّروها فيما أحلَّ لهم، كانت نعمة عليهم في مقدماتها وعاقبتها، وإلا ذهبت وبقيت تبِعتها.

وهذه النتيجة - في شُكْرِ النعمة أو كُفرها - سُنةٌ مضتْ في الأولين، وتمضي - كذلك - في الآخرين.

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[2]

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3]

---

(١) إبراهيم: من الآية ٣٤، النحل : من الآية ١٨.

(٢) النمل : من الآية ٤٠.

(٣) الزمر : ٧ .

والناسُ في أمورهم بين حالين: بين ضيق ينشُدون المَخْرَجَ منه، وبين نجاةٍ يذكرون فيه نعمةَ الله أو ينسَون، فإن نسوا وبَغوا - بعد أن منَّ الله عليهم - مضت سنةُ الله فيهم، وإذا ذكروا وشكروا، كان لهم جزاء الشاكرين.

والقرآنُ الكريمُ يُنيرُ الطريقَ أمام الناس، ويُبيِّنُ لهم سُنَنَ الله في حياتهم وأعمالهم ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (١)

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٢)

إن السَّمْعَ والبصرَ والفؤادَ نِعَمٌ تطلبُ الشُّكْرَ، وشُكرُها في إخضاعها لطاعة ربها، وهي شاهدةٌ على مَن أرادها لغير ما خُلقت له.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنفال : من الآية ٤٢.

(٢) آل عمران : من الآية ١٤٥.

(٣) فصلت : ١٩ - ٢٤

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١)

وكُلُّ تيسيرٍ في أمرٍ، أو تأييدٍ بنصرٍ، نعمةٌ تأمرُ بالشكر، وتدعو إليه.

ومن الشكر ألاَّ يقع مع التيسير إعراضٌ وبغيٌ، أو يتبع التأييد نِسيانٌ وانحرافٌ يُنبئُ عن نُكرانٍ وجُحودٍ.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

والله يُذكِّرُ المؤمنين بنِعَمِه؛ لتستقيم أمورهم بشُكر المنعِم.

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

ولكن كثيراً من الناس - مع فضل الله عليهم - لا يشكرون.

---

(١) النحل : ٧٨.

(٢) الأنعام : ٦٣ - ٦٥.

(٣) الأنفال : ٢٦.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

والشكر لا بُدَّ أن يستغرقَ أمرَ الإنسان كله، فيُدرك القلبُ حقيقةَ النعمة: ويلهجُ اللسانُ بالثناء على المُنعِم، وتُؤدِّي الجوارحُ دورَها في التعبير بإخضاع النعمة لطاعة الله، وحُسن الإخلاص له، وصِدق التوجه إليه.

عندئذ يكون الفوزُ، ويكون الجزاءُ من الله الشَّكُور.

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٤)

* * *

أخي المسلم: استبصِرْ بآيات ربِّكَ في جميع أمرِك. واعلم أن لله سُنناً لا تتبدَّل ولا تتحوَّل.

فلا تؤخِر عملَ اليومِ إلى الغد؛ فإنك لا تدري ماذا تكسبُ غداً.

وبادِرْ بعمل الخير كما أُمرتَ قبل أن يُحَالَ بينك وبينه.

---

(١) سبأ : من الآية ١٣.

(٢) غافر : ٦١.

(٣) الشورى : من الآية ٢٣.

(٤) الإسراء : ١٩.

وتُب إلى الله من قريب، ولا تجعلْ الأملَ يخدْعك بطُول أجل، فيفجؤُك الموت وأنتَ على سُوء حالٍ ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (١)

واستَعِنْ بالله في جميع أمرك، واذْكره ولا تنساه في سِرِّك وعلنك، واستغفِرْ لربك، وسبِّح بحمده. واعلم أن اليوم الذي يُمرُّ بكَ شاهدٌ عليك، ولن يعود، وأنَّ ما أُخبرتَ به - من وعدِ الله - آتٍ، وكلُّ آتٍ قريب.

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ (٢)

* * *

(١) المنافقون : من الآية ١١.

(٢) العنكبوت : ٥، ٦.